مجموعة قصصية

نوفا فيتا

عائشة مكي

اسم الكتـــاب : نوفا فيتا (مجموعة قصصية)

التأليـــــــف : عائشة مكي

إخـــراج فنـــي : هيام فهيم

تدقيق لغـــوي : مها السيد

رقم الإيـــداع : 2019/23950

الترقيم الدولي : 978-977-835-165-1

صادرة عن

زحمة كتّاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع

Facebook : اسكرايب للنشر والتوزيع

Email : scribe20199@gmail.com

Tel : 002 01005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ©

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الإهداء

حينما يُستلَّ الأمان ويفتقد الحوار في قضايا مصيرية،

سيندفع البعض نحو منحدر اللا إنسانية،

ليخلق بيئة خصبة للتوتر والخوف.

عائشة مكي

نوفا فيتا

عائشة مكي

الباب الخلفي

تكفلته الأرصفة والطرقات بلا هوية، يسلبه الذل والخنوع كبرياءه، يداعب آلامه وحرمانه، الذئاب تنهش في جسده، لاقيم ولاعادات حليفة له حتى جدران الصفيح لا تفقه معنى الرزيلة أو الفضيلة، يضاجع التشرد والبؤس وتقلصات الأمعاء، ملابسه رثة، ملعون من الجميع حتى عمال النظافة يضجرون منه، الشوارع به حالكة فصولها صقيع دائم، يلعنه الخريف بعواصفه، ويجرده من أحلامه القديمة التي ذُبحت تحت وطأة واقعه المرير والبحث عن رغيف خبز لا أحد يستلذه، وضعه مهين، وكأنه انتقام الزمن منه.

عاصم لا يجد قوت يومه أو شربة ماء تعيد له رونق شفتيه المتشققتين الجافتين، تذرف عيونه بصمت، تسمع أنينه حين تصفعه الشوارع والأرصفة، عاصم يخشى العالم حوله، لأنه خالف دستورهم ومعتقداتهم في الملبس والهيئة والسلوكيات، يأتي الشتاء فيصك عظامه وعظام أسرته، الكل يتأفف من رائحته، أمامه في الشارع المجاور صيدلية لرجل غني يعتقد أنه يعرفه، يملك كل دكاكين العطارة في البلدة، وقد يملك سره الدفين، دخل عليه وسأله في خشوع، ألا تتذكرني أستاذي؟!

فرد الرجل عليه وهو يُحَدِّق فيه من تكون؟!

قال: أنا تلميذك، الذي سرق علبة الألوان من زميله في الفصل، فأنا أعشق الرسم والتلوين وليس لدي ألوانًا، فأخذتُ علبة ألوان زميلي كي ألون رسمتي، فبكى زميلي لإختفاء ألوانه، فقمتَ أستاذي يومها بفحص حقائبنا جميعًا، كنتُ واثقًا أنني سينفضح أمري، ويكرهني زملائي ويقاطعونني، ويطلقون عليّ لقب حرامي، حينها أمرتنا أن نغمض أعيننا جميعًا، وعندما وجدتها في حقيبتي أكملت الفحص حتى آخر حقيبة في الفصل، كي لا يعرف زملائي مَن سرقها، وكان الخوف يسيطرعليّ ويتملك من روحي، وزميلي يبكي حتى وجدتَ علبته معي، فرح فرحًا شديدًا عند استردادها، رغم خوفي لم تعاتبني ولم تذكر هذا الموقف لأحد أبدًا، ضحك الرجل وقال: لأنني لم أعرف حتى الآن مع مَن كانت !! كنت مغمض العينين ثم أنك كنت صغيرًا جدًا، كيف لك أن تتذكر؟! الستر نعمة من الله، وأنتم كنتم كجداول الماء الصافية، ولكن ماذا فعل بك الزمن لتصل إلى هذه الهيئة؟! تراقص الحزن في عيني عاصم، وتدلت رأسه فإذا بالرجل يعطيه مبلغًا من المال، فرح عاصم ودعى له بالبركة والرزق، طلب الرجل منه شراء بضاعة بهذا المبلغ ليبدأ مشروعًا صغيرًا به، فرح عاصم وتهلل وجهه، ثم أخذ يتمتم بصوت خفيض؛ هذا حقي منكم فأنا ضحية لك ولغيرك في هذا المجتمع الغير عادل ليعزز حقده على الرجل، ثم أطلق العنان لأحلامه بعيدًا عن واقعه قليلاً، وفي أثناء سيره رسم على جدار قديم رجلاً برجل واحدة يحمل حقيبة فيها عملات ورقية

كثيرة، ويرتدي ملابس أنيقة وبيده عطره المميز، بعدها ذهب و اشترى حقيبة سوداء وبعضًا من المجلات والصحف اليومية والسجائر، أخذ عاصم يترنح فرحًا، ويسير في زحمة الشوارع بشق الأنفس يبيع بضاعته ليجمع شتات أسرته التي ابتلعها الجوع؛ فأمه طُلقت وهو في الخامسة من عمره، تزوج أبوه وهو في السادسة، علمته زوجه أبيه مهنة التسول، خرج عاصم من مدرسته في الثامنة من عمره، مارس المهنة وحده في ذات العام، منذ ذلك الحين وهو لا يعرف معنى مائدة الطعام، ولا آدابها، حاويات الشوارع مصدره الرئيس للطعام، هي كذلك وقته المقدس للراحة من معاناته اليومية، عاصم يجمع المال ولكنه لم يحصل منه على مليمًا يسد به رمقه، فهو يلقي به في حجر زوجة أبيه؛ينتحب قلبه عند رؤية زملاؤه تحملهم سيارات آبائهم للمدارس والجامعات، وهو وسط الضياع يشق عباب أيامه بين الأزقة والشوارع.

يتجمع وزملاء المهنة في أجداثهم للشوارع التى تلفظهم، يحملون براءة الطفولة ليلقوا بها في مستنقع التشرد على أرصفة التسول، لتتلوث ملامحهم ونتشوه أحلامهم وسط اللاإنسانية، يستدرون عطف العالم حولهم، فينقدهم ورقة نقدية يلقون بها في حِجْر ذويهم، تعقد المؤتمرات والندوات الدولية لرفع شعاراتهم الزائفة لترضي ضمائرهم غرورهم دونما فائدة تذكر.

عاصم أبوه حارس لكراج سيارات وزوجة أبيه لفظت تسعة من الأطفال للتسول ليس لهم إلا غرفة من الصفيح يعيشون جميعًا فيها، ذات يوم يستيقظ عاصم على فاجعة خطف أخته الصغيرة من أمام البيت، يقال أن سيارة بها شباب خطفوها وطاروا بها، قطع عاصم وأسرته شوطًا كبيرًاحتى عرفوا مكان هؤلاء الشباب، هم ينتمون إلى عصابات تشغيل الأطفال، وامرأة عجوز بسنٍ واحد في فمها هى مَن تتحكم في المتسولين و توزيعهم في مناطق مختلفة نائية عن منطقتهم، رغم توفر الفرق الراجلة في دور الرعاية الاجتماعية، ومشروعات التأهيل إلا أنهم لم يتمكنوا من كبحها، حاول عاصم أن يخلص أخته من يد المتسولين فقام بينه وبينهم حرب عارمة؛ ضربًا، ورفسًا، وشتمًا، وركلًا، ولكمات، والسلاح رفيقهم، كل منهم يحقرالآخر، لتنتهي بقفد عاصم إحدى رجليه والنجاة بأخته، ليلقي بإحدى أوراقه في صندوق القمامة فلا عزاء، فقد أصبح أكثر إحتياجًا، كانت مُخيلته تسبح به عبر الأفق البعيد حيث الحياة الكريمة ليتخلص مما هو عليه، الإحباط أصبح شبحًا يلتف حول عنقه، الانهيار يمزق أواصره وينهمر من عينيه لا أحد يسأل عنه أو يطعمه، الألم المعوي يصاحبه صعوبة البلع تزاوله ولا تغادره، الجوع والمرض تمكنا من جسده النحيل، خرج بقدم واحدة ليباغت معدته، كل شيء ضاع منه فلا مستقبل له حتى في التسول، أصيب بفقر في الدم، أسرته تجاهلته واستمر الحال على ما هو عليه، تنهش الصقور في

أجنحته، فلجأ إلى شرب الكحوليات مع رفقاء السوء، حتى ساعده أحد الجيران في الذهاب إلى طبيب قريب في المنطقة، ليدفع بعضهم ماتيسر من المال له حتى يشفى، فلاخدمات صحية ولا سكن لائق ولا حتى فرصة عمل توفرها حكومته له.

بحافل الخيبات ترشق قلبه حتى حطمت عناده، تناحرت الشوارع والأرصفة في عينيه، وذات يوم ماطر وهو يحمل حقيبته السوداء يرى الكل يحاول الاحتماء من الأمطار إلا هو، ظل واقفًا مكانه، وإذا به يلمح لفافة مبللة على الأرض الكل يدهسها بقدميه لينحني هو ويأخذها، عندما فتحها وجد داخلها عقدًا ذهبيًا، والكثير من العملات الورقية، أخذ عاصم يحدق فيها كثيرًا، استجمع قواه كمغامر مثابر بسط جناحيه وحلق وهو مزهو كأنه يعزف لحنًا موسيقيًا كموسيقى "أناتولي ليادوف" التي هى وصمة عار على جبين الثقافة الروسية، بعدهاانتوى الذهاب ولكن هذه المرة ليس لبيته الصفيح، انتوى عاصم الخروج خارج البلاد بعدما باع العقد الذهبي ليبدأ رحلة لايعرفه فيها أحد، ليكون له حرية إختيار نمط حياته وتغيير سلوكه، لربما يجلب له ذلك الإحترام والتقدير، فالحكومات اليوم تنتهج سياسات العين المغمضة كي تحافظ على السلم الاجتماعي ولا تدري ما عواقبها، وصل عاصم إلى الميناء بعد عدة عواقب وتعاقد مع قائد مركب ليركب البحر معه،

سبعة أيام والموت حليفه، العدوى الجرثومة تصل إلى العقد الليمفاوية ويحدث له ورمًا خارج البطانة المعدية،

بعد عدة أيام يتحرر جسدهه من المرض قليلًا فيتسلل إلى عالم السعادة عبر البحار، ليعود إلى لجة الحياة، يبدأ رحلته لعل الطبيعة تهديه ريحًا طيبة، تمر الأيام فينفذ الطعام والمؤن، ويتعرض هو ومن معه للكثير من المعوقات، وفي الرحلة يرافق العديد والعديد من الأفراد لكل حكايته؛ "سالم"قتل أحد المارة بسيارته، فهرب خوفًا من السجن.

الآخر هرب من الحرب بوالده الطاعن في السن ومن التجنيد الإجباري، الكل حياته قُلبت رأسًا على عقب لا أحد يعيش حياته الطبيعية.

ردد قائد المركب في جهاز الثريا لا يمكننا الخروج من المأزق الحرج إلا بالتواصل مع مركب على نفس الخط، وبعد الكثير والكثير يصل المركب إلى البلد العربي المرجوه، بعدما استراح عاصم في فندق متواضع بدأ رحلة البحث عن عمل يناسب حالته الصحية، لكنه يأس.

قال لنفسه لا داع للبقاء في هذه المنطقة، سأحاول البحث عن عمل في منطقةٍ أخرى، لاحظ أن الكل ينظر إليه بتأفف وقرف، فهو ليس عنده سوى هذا البنطال وهذه السترة الرثة، لم يُعوِّل عليهم كثيرًا غالبًا عندهم حق، بعدها انتقل إلى منطقة أخرى وفي طريقه لاحظ رجلًا عملاقًا ذا حُلة زرقاء واقفًا في الشارع فتسلل عاصم وسط الواقفين،

ورأى كيف يتعاملون ويجيبون على أسئلتة، ليسأل الرجل وعاصم يجيب على السؤال، ليفوز بـ نصف مليون ريال، يطير فرحًا، بعد عدة أيام حصل على الجائزة بعدما اقتطعوا منها مبلغًا للضرائب، وفي الصباح الباكر ذهب واشترى بيتًا ليسكن فيه، واشترى الكثير من الملابس القيمة، بعدها قرر أن يشتري صفقة حاويات للقمامة، والأشياء الفائضة ليتاجر فيها.

استأجر شابان يساعدانه في فرز هذه الأشياء، أخذ يتخيل مكتبه وهو رجل أعمال وحوله الصبية ليأمر هذا وينهي، وإذا بآلام معدته المصابة بجرثومة المعدة منذ صغره بسبب ما كان يتناوله من ملوثات غذائية تطفح على حياته تصرخ صرخة تقطع حبل أحلامه، وبإبتسامة تسبقها دمعة تحكي معاناته وآلام براءته، يذهب لعدة مراكز صحية وفي كل مرة يؤكدون له أن الإصابة تعدت منطقة بطانة المعدة إلى العقد الليمفاوية تلك التي تحيط بالمعدة.

شعور بآلام في الجزء العلوي من البطانه مع الإنتفاخ والقئ و تناقص في الوزن. ثمة لحظات ضعف تهرول إليه، تسبب ذبولة، تتسلق هشاشته، أصبح فارغ اليد والمرض صديق له منذ نعومة أظافره يعيش ويترعرع في معدته المصابة بالإنتفاخ والمسببة له التقيؤ المستمر. كل هذا وهو يتسلق الباب الخلفي للحياة، يعد خطواته، عشرة.. عشرون... ثلاثون..

أغصانه تتساقط، ألوانه ذابلة ما بين بني وأصفر، كحوليات وطاولة بلياردو، هشاشة في حياته، إشارة المرور تعلن لونها الأحمر دائمًا. لينام تحت أغطية مرضه، فيتمدد ويعوي لتقفز آلامه في ملامحه. لحظات فارقة ومعه الصبية في المستشفى في إنتظار نتيجة الفحص الطبي.

تتراءي أمام عينيه إنكسارته وسقطاته، قهقهاته في المقهى ولحظة رحيله تباغته، يتلمس الحيطان، يراقب من بعيد بيته الصفيح المتهالك من تأثير العوامل الجوية عليه، أبيه.. أمه التي لا يعرفها.. أخوته، إسمه المستعار، أحلامه الطائرة، تلك التي لم تعرف له عنوان، ثمة آلام تقضم عظامه.. تهشم روحه.. واليوم يلتصق به الموت، لتفصح نظرة الطبيب عن المصيبة الجلل وإصابته بـ السرطان المعوي "gastriccancer".

يخضع للعلاج الإشعاعي والكيميائي المدمر في حد ذاته. يكتب الصبية الذين يعملون معه عبر الفيس بوك عن حالته وعن بلده، لربما أحد يساعده في مرضه. يأتي الكثيرون ليشدوا من أزره ويساعدونه، ويشجعونه ليلتحف بوشاح حب وحنان، يتحول السواد إلى اللون الرمادي، يخرج بعد سنتين وقد شفاه الله ليكشف عن موهبته للناس، وفي الطرقات يرسم رايات الدول ويلونها بألوانها الزاهية، لتأخذ المارة عزة النفس ويلقون ببعض العملات على أعلام بلادهم ليقتات عاصم من تلك الأموال وتكون هى مصدر رزقه الوحيد عبر بابه الخلفي للحياه.

****

المَوْتُ قَسْرًا

الربيع يُعانِق سنابل هدى، تبتسمُ فتتعثر الشمس حولها، جميلة الروح هي، حُسنها فاض واستطاب، يُدلل العشق ليلتف حولها العشاق، فكّت قيود المراهقة، الكل يتمنى وَصْلها، بريشةِ مبدعٍ رُسمت ملامح هدى في قلب أحمد، جلست على نبضات قلبه متربعةً ترسم معه لَوْحات عشقها، مسكوب هو في وريدها، يُلقي جيوشه خِلسة في أحلامها، في زوايا القلب ضجيجٌ له، يسكن في كأس نبضها الوليد، يرتب فوضى مشاعرها فترسم البيت وتستحضر يوم العُرس معه، وكأن رُوحَها عَبْر كفيه.

اليومُ دقات قلبها في تسارع، جفونها منتفخة الفزع يلاحقها، مُكْفَهِرّة الوجه، حافية القدمين تتزين بالتوجس والرعشة، اُسْتُشهِد قلبها وأعلن الحِداد على أيامها، السواد يلتف حوْل معصمها، تتبعثر أشلاؤها، لقد لَفَظّت حياتها منذُ ذلك اليوم الأسوَد، كان القتل إجباريًا، والموت قَسْرًا، حاولت الفرار من تحت وطأته ولكنه تمكّن من جسدها العاري أثناء الاستحمام، اخترق عُذريتها، تركها جُثةً مُهْلَهَلةً تغرق في نزيفها منبطحةً على الأرض، قذفها في غَيَاهِب الهوان والذُّل، هل تستفيق على موتها، اُسْتُشهِد شرفها في تلك الليلة.

تأتي أمها من الخارج لتنهار من تلك الفاجعة لتُشَيّع أيامها السعيدة هي وابنتها، اليوم مُسْودٌ كسواد الليل الحالك لكنه ليس له نهار، الدماء في العروق تستعر، نزيفها يُحلي عُشب أيامها الأخضر، الأسرة اليوم تعيش مهزلةً إنسانيةً حالكةً، تحتضنها أمها تصرخ وتنهار، هدى لم تستفق بعد!!! الأم تتلاشى أنفاسها تمتلئ أَكُفّها بنزف ابنتها، الكوْن يتوارى من حولها ليعلن توقف بصرها، ضيق في أنفاسها تردف داخلها ما بين حاضرها وماضيها طفلتها المدللة رقيقه الملامح، هدى الحالمة ملامحها تُشعّ أنوارًا لتغمر البيت بالحب والحنان، كثيرة العطف على والديها، كل زوايا البيت تشارك هدى يومها المُزْهِر، المُزخرف بكلامها وورد أحلامها.

الأب يحتضنها بين ذراعيه يدللها يخاف عليها، ويوفر الأمان والاستقرار لها يُغْدِق عليها الأموال، لتتمتع بهوايتها المفضلة وهى هَوَس التسوق وشراء الملابس، والإكسسوارات، والأحذية يشاركها أحلامها هى قُرّةُ عينه التي يرى بها، ينخرط في أحلامها رغم انشغاله كمحامٍ مرموق وله برنامج تليفزيوني مسموع، الكل يعرف حياته السياسية، فهو يتطلع إلى الكرسي، دائمًا ما يبحث عن مجده الشخصي، ثَمّة أطماع تجرفه عن المسار، لا يعبأ بالانشقاق، قد يحقق أجندات خارجية ليقود البلاد إلى الفُرْقَة في سبيل تحقيق أطماعه، قد يرنو إلى تخطيط أو فكرٍ عالميّ ليصل لمعاليه، فهو لا ينظر ولا يهتم بمَن انتخبه ووقف بجانبه كي يحقق طموحاته، فهو يرتكب جريمة في حق نفسه أولًا ومن وَلّاه ثانيًا، لديه

تناقضات، كثيرًا ما افتضح أمره، قراراته عبارة عن إكراهٍ لمَن حوله بسبب كثرة الأدوات التي مَكّنَته من أداء ذلك الدور البشع، قد تراه يخترق الحقائق ويتجاوزها؛ ليصل إلى ما يرنو إليه عقله، الحياة تأخذه يومًا بعد يوم فيبتعد عن الأسرة، عصبيته أصبحت زائدة، اليوم يتناسى قُرّة عينه، تفتقده في حياتها، كان عندما يعود تعود الحياة إليها فهو النور بين جفونها، سُكّر حياتها.

تجلس هدى وأحمد ليحلقا تحت الشجرة بأحلامهما عيونهما نهر حب وحنان، الحَمام يرفرف ويَزُفّ أحلامهما نبضها الوليد نغمات عَبْر أوتار قلبه، حبه يجري في عروقها لتهبط الثُّريا على أيامها.

تبكي الأم وتبكي تنزف عيونها دمًا تحاول إغاثة ابنتها تجرها وتجر أذيال الخَيْبة معها، اليوم دُفنت أحلام هدى في مستنقع بيتها، تَهَدّم الكوْن من حولها، أعلنت الاستسلام ليأسها؛ لا صباح ليومها، الأم تعلن فَقْد أيامها.

هدى كل يومٍ تمزق ثيابها وتنهار، هو لايسمعها ولا يعرفها لا يعي حجم الجحيم الذي ألقى ابنته فيه؛ إنه الأب الخَرِف الذي حَلّق المرض حول رأسه، أفقده عقله، لا إدراك لا وعي، وَهَن الذاكرة يعتليه فقد كل شيء معه!!! مكانته السياسية، زوجته، تسبب في قتل ابنته قَسْرًا، دوامة مرضه أخرجته عن صوابه جعلته يتحرش بابنته وهي تتحمم يفقدها

عُذريتها لتعتزل العالم بما حَوى، وتفقد حبيبها أحمد، وما خططت معه من أحلام.

الأم تُعْتَصر ألمًا، أحمد يهاتف هدى يوميًا رعشة من قلبها تقذفها عبر أحلامها معه ثم تتهاوى لتنذر بفناء حياتها، ليختنق صوتها.

في منتصف الليل تشعر هدى بتكسر عظامها ملامح أحمد وصورته لا تفارق خيالها، حنين، وشوْق، وحُطَام عشقٍ، أصابع الأيام تطير وتجرفها في بحرٍ مظلمٍ ليس له قرار ولا شطآن، إلى وَهَن وغُربة وحنين نوبات أنين، تصارع أيامها تغتال براءتها، ووجع لا يلين مع السنين، لحن شقاء حزين.

الأم تعقد العَزْم كي يتركوا منزلهم في الليل، تهاجرهدى وأهلها إلى بلدٍ آخر لا أحد يعرفهم، تتوارى حول عالمها الخاص، ذات مساء صوتٌ خافت يطرق مسامعها، يتردد بخوف يتسلل إليها خلف ستائر الغرفة، واقفةً هى في بلكونة غرفتها، لا تجيب هدى، غَدَت تغلق مسامعها تنهر نفسها فجأة قررت ولأول مرة أن تجلس وتستحضر أنفاسها تعزف عزفًا لطالما راودها، ولكنها لم تجرؤ على القيام به، غدا يراقصها ليل نهار غبار يومها الأسود، يطمس رؤيتها الحريرية يقتل أحلامها الوردية، يسلب منها براءتها لترتدي شياطينها فهي تغذيهم يومًا بعد يوم سُمّ موتها، ترعرعوا داخلها ليعلنوا عن تواجدهم، عن تسلقها وعلو مكانتهم داخلها، وسهام الانتقام تنظر من نافذة غرفتها ليلمحها شابٌ يتطلع إلى وَصْلها لا يعرف

أنها اعتزلت نبض قلبها، ألقته في غَيَاهِب اللاعودة وسط الظلام الدامس، تستحضر شياطينها لتغتسل من آلامها. فاليوم لاحب ولا حنان، مات الحَمَامُ في قلبها، اليوم تعقد العَزْم لاستغلال ذلك الشاب ليحقق حُلْمًا لطالما راودها ولكنها لا تستطيع تنفيذه.

اليوم تُقدم لذلك الشاب المال وتعده أن تكون زوجته إذا نفذ لها ما تريد، ليحقق لها طلبها وتزغرد حياتها ظنًا منها أن السعادة سترفرف من جديد على قلبها؛ قتل الشاب والدها، لتبدأ قصة عذابها من جديد.

إنتفضت هدي متثائبه من نوم عميق، تتفحص نفسها بدقة تنظر من شرفتها، تكتشف أنها كانت في حلم مزعج؛سلبها عقلها وتاهت معه حياتها، تنهدت بعمق، أيقنت أنها أضغاث أحلام فإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وجلست على مقعد بجانب سريرها، ثم توجهت إلى غرفة والديها، كعادة أبيها يرتدي نفيس الملابس وأثمن العطر، عندما رأها ألقى بقبلة على وجهها الرقيق ثم مرر يداه على خديها ليودعها وأمها عند الباب، وعند فتحه يقوم رجال الشرطة بإقتحام منزله للتفتيش والقبض عليه على خلفية إستغلال سلطته وإختلاس مبالغ مالية ضخمة، ظلت هدى واجمة تدور عينيها في محجريها تتذكر الحلم لتنهار وتردد :أبطئ خطاك يا زمن فإنه نور دربي، وكأنها آيلة للسقوط إثر بركان جلل، تسمع صرخة أبيها تشق الأصوات محاولاً سحب مسدسه الشخصي متحديًا هيبة الدولة، ليحبط رجال الشرطة جميع محاولاته ورفضه

الركوب معهم، ثم يركب رغم أنفه وهو يتوارى من عيون رجال الصحافة والإعلام، الآن عرف أنه هو من حفر لنفسه نفقًا مظلمًا دون أن يدري، فكل جرائمه مدونة على أقراص الليزر والتي تعلن إدانته لينال عقوبته، فهو لم يقم عروش ضميره، ولن يتقن بناء ذاته، ولم يعرف أن الله يراه، فنال جزاءه

****

يَوْمُ الخِطْبَةِ

عشقتْ قلبًا يتسع للعالم وما احتواه، حياته رخاء، قلبه ينعم بالنقاء، وعيونه يملؤها الصفاء، رُزقتْ منه بثلاثة أولاد وبنت، الابن الأصغر في الصف الأول الابتدائي. الأب عائل لأبناء أخيه الذي اُسْتُشْهِد في القذف منذُ عشرة أعوامٍ ونصف، على يد المستعمر الغاشم، الذي تفرس فيه في مشهد مريع، وسط رَماد الماضي ورُكامه، كان هو الشمعة التي أضاءت سماءهم، والضفة التي يلجؤون إليها، الأبناء والبنات أصبح منهم الطبيب، والمهندس، والصيدلانية، وصاحبة الوسام الذهبي التي لُقبت بفارس الكلمة، الكل جلوسٌ في سهرة عائلية ذات ليلة يتناوبون موضوعاتٍ شتى. فإذا بالأب يتسلل إليهم ويبادلهم الحديث فرفضوا ذلك مُعللين أنه ليس معه شهادة جامعية، كان صوتهم كهزيم الرعد الذي ثقب أذنيه، ذلك القَبس النوري الذي أحاطهم وحجب عنهم أصابع الظلام، قام من مكانه وحاولت الأم أن تُرَبّت على قلبه، فهويلتحف بعزة النفس وبطموحه الكبير.

الأب لديه محل صغير، أصبح يدرس في محله دون أن يعرف أحدٌ، اليوم ينفض الليل، فهو يوم خِطْبَة ابنته وهو يوم إعلان نتيجة تخرجه،

الكل يمتطي صَهْوِة السعادة والفرح، أيقظ زوجته وأخبرها أن هذا اليوم لا مثيل له، استيقظ الجميع وبدأوا الاستعداد للخِطْبَة.

العروس جاءتها صديقاتها ليساعدنها في التَّطَيُب، والتزين، وارتداء ملابس الخِطْبة، الأم خرجت لإحضار بعض الأشياء الناقصة سريعًا بصحبة ابنتها الصغرى، والشباب خارج المنزل لتعليق الأنوار البهية والزينات الملونة، ونثْر الورود في كل الزوايا.

الأب ذهب ليتسلم شهادة تخرجه ليقول لهم سوف أشارككم الحديث، الكل يتمتع بالنشاط والحيوية، صباحٌ ليس كمثله صباح، الورود تملأ زوايا البيت خاصةً اللون الأحمر منها.

الأم في السوق بصحبة إحدى بناتها، ذات الجمال، والرقة، والشعرالمُنسدل على كتفيها، عانقت يدها وكأنهما صديقتان حميمتان، الفرح يغمرهما، يتهادان تارة وتسرعان تارة أخرى، تنبعث من بين ثغريهما الابتسامات الناعمة، أخذتا تسيران وسط الزحام الشديد، وعند أول منعطف بالطريق إذا بمظاهرة نسائية يدعمها الحِراك الشعبي، فجأة جاءت المُنَسقات لدعوتهما للاشتراك وارتداء السُّتْرة الخاصة بالمظاهرة، قالت الأم أنه يوم مزدحم بالأعمال فهو يوم خِطْبَة ابنتي، وقبل إكمال حروفها كانت الطائرات المُحَلِّقة حولهم تقصف المواطنين العُزّل في الشوارع لتغتسل ابنتها بعطر دمائها، وبطفولتها البريئة ونهديها الصغيرين اللذيْن يرويان براءتها ونقاء سريرتها لتصبح جثةً هامدة محتضنةً يد أمها،

تأتي عربات الإسعاف وتحملها وهي سابحة في أحشاء أمها وسط احتضار قلبها والكل في الساحات يكتم أنفاسه.

وفي الطريق المقابل تلمحُ الأب مزهوًّا بما قام به من إنجازٍ، يحمل بين طيّاته شهادة تخرجه من الجامعة ليُقصف هو الآخر، تتعرى هالات دمه الطهور فيرقد حاملًا أملًا لطالما جاهد لتحقيقه، سقط شهيدًا صدّ بصدره العاري خيْبة وطنه، شهيدًا وسط الطريق مغتسلًا بشهادته وحُلمه النقي، الكل على أَهُبَة الموت.

الشوارع تتزين بالجثامين وبرائحتهم الزكية، الابن الأصغر قادم مع أصدقائه من المدرسة، وجهه مُتهلل بالفرحة يردد الأغاني، ويدعو صديقه لحضور الخِطْبَة في المساء ليطلق ساقيه للريح.

فجأة، يصرخ صرخته اليتيمة ويعلو صوته ليتساءل وسط الحَشْد الكبير في الشارع لماذا تقصفنا الطائرات المُحلِّقة لماذا؟! لماذا دم أبي ساخنًا؟! لماذا وضعتم قماشة بيضاء على جسده المُبقع بالدماء؟! والابن غارق في دموعه وأبيه غارق في دنيا الشهادة والبقاء.

يرد أحدهم عليه؛ لأنهم مُخنثون عقيمو الرجولة والكرامة ليشده جندي عقيم من أذنه شدًا حتى تكاد أذنيه تطير بعيدًا عنه، فيتوعده الابن بالقتل، وأنه يومًا

سيخفيه في جحور الذل والهزيمة، يتقدم أحد نجاري الحي بنعشٍ من الخشب القديم ليزجره ذلك الجندي المُخنث عقيم الإنسانية ويلقي به

بعيدًا مع خشبته وقبل أن يلقي بالجثة في مستودع القُمامة يقع بالنعش المتهالك لينتفض منه مسمار ضاحك ليُلقى بعين الجندي النتنة وسط هذا الحَشْد لتتساقط معه نجاسته، فينفض الابن غبار يأسه، يمد بصره بعيدًا فإذا بشعاع يتسرب بين ثناياه يخترق حُرقته ونحيبه ليزرع نخلة الأمل، سيأكل منها في توه لن تجف دموعه حتى يبتلعها هو وإخوته ويلعق دماء هؤلاء الجبناء، مهللًا الله حق، تنام الروح في مضجعها ولنا يوم فيه نستفيق.

****

ريتا

"ريتا" فتاةٌ سمراء بالغة الحسن، حياتها ابتسامات وورود تحوي كل مكان هي فيه، أنفاسها أريج من الجوري، هادئة مطيعة ذات عينين زرقاوين كزرقة السماء، واسعتين يطل منهما الحزن، شعرها مُرسلًا على كتفيها، تمر بها الشهور والسنون والحزن يغتال بسمتها.

تستيقظ على موجةٍ من الإهانات، تجلس داخل غرفتها وتئن صامتةً وكأن بينها وبين عمتها حربًا ضروسًا، تحرقها وتندب جسدها، تجلس مُتكومةً كل ليلة، الحزن لا يفارقها، تجوب برأسها لتتذكرعندما سقطت دُميتها من نافذة السيارة، فطلبت من أبيها أن يُوقف السيارة ويعيدها لها، وإذا بحادثٍ مروري مُرَوِّع، فيه تخدرت روحها وغُرست في بحرٍ من المتاهة الأبدية، ليموت أبيها وأمها في آنٍ واحد وتنجو هى لتجد نفسها في بيت عمتها.

البرد والخوف يلفح جسدها النحيل، صوت عمتها يستفد مشاعرها، فتفيض دموعًا، كم أُكْرِهت على الخنوع لأوامرها، تصرخ ليل نهار حتى ذبلت أوراقها الخضراء، كل ليلة تزفها دموعها للأحزان، الجنون يجوب برأسها كأسدٍ جائع يقضمها، الأحلام تطاردها، أعلنت استسلامها للاكتئاب، فتملكت الكآبة من روحها وحياتها، شعرت بأنها لا قيمة لها في هذا العالم، تداعبها الاضطرابات، تمر السنوات وهي ليس لها منقذٌ

غير تلك المرأة مَهيبة الهيئة التي ليس لها أحد في القرية فعاشت وحيدة دون أن يتردد أحد عليها، وكان خط يدها ردئ فكانت تستعين "بريتا" لإنهاء بعض إجراءات عملها، سألتها عن أهلها فقالت "ريتا" أنهم رحلوا وأنها تعيش مع عمتها وبدأت تقصّ حكايتها للسيدة مارينا، فأطعمتها، وأجلستها، ورَبَّتت على كفها الصغير، وطلبت منها أن تراقب جيدًا ما تقوم به، وسوف نتعلم سريعًا، وبدأت تعلمها مهنتها؛ حيث كانت تعمل في مهنة التمريض.

مرت الأيام و"ريتا" نتعلم من السيدة مارينا، بعد فترة بدأت نتقن مهنتها مقابل مبلغ ضئيل من المال كانت تخفي جزءًا وتعطي عمتها الباقي.

لاحظت السيدة "مارينا" أن "ريتا" يصيبها الهلع والخوف عندما يحدثها أو يسألها أحد عن أي شيء فتقفز هاربة من أمامه، وهي زائغة العينين، مستغرقةً في آلامها وأنها تذوب رعبًا كلما سمعت صوت عمتها؛ فبدأت تضمها إلى صدرها وتشعرها بالأمان.

اليوم هي ممرضة توليد في القرية الكل يشهد لها بالتميز في مهنتها، خرجت من بيت عمتها ولكن صوتها ما زال يُحدث نفس الضجيج داخلها، تسبح في بحيرة الأحزان والاكتئاب، نتفحص الوجوه فلا ترى إلا عمتها وهي تُقَبِّل قدميها لترضيها فتركلها وتلطم طفولتها وصباها، تبحث في كل الأنحاء عن ماءٍ لتغتسل منها ومن هذا الحزن القابع في ذراتها فلا تجد إلا نصلها الباتر في جسدها الغارق في تمزيقها.

كانت السيدة "مارينا" تطلب منها جَمْع تفاصيل عن أهل القرية فكانت تطيعها، وتنصت إليهم وتضاهيهم في حديثهم. وهى عائدة من عملها تقف أمام النهر في الجهة الخلفية التي يحبها أبوها، فلا ترى إلا صورة عمتها وكأنها تُحَدِّق فيها وتصرخ، فيتجعد وجهها، ويتصلب جسدها، ويرتج حتى تغرق في عرقها، فينزف قلبها كلما مشيت خطوة تراوغها ذكرياتها لتُكسرعظامها وتمضغ أحلامها حتى بلغت العشرين من عمرها فاستأجرت بيتًا صغيرًا في منطقة نائية؛ لتعيش فيه دون عمتها.

مرت الأيام وهى تمارس عملها مع السيدة "مارينا" تعطيها لفائف كبيرة مطوية وتطلب منها ألا تفتحها، فكانت تطيعها ولم تتطلع لما بين يديها، ذات يومٍ أصيبت السيدة بالدوار، وارتفعت حرارتها، فأخذت "ريتا" تتمتم بكلمات غير مترابطة وعيناها الواسعتان تلمعان، وتبرقان، وتحاول جاهدة إنقاذها ولكن دون جدوى.

ظلت جالسةً في مكانها وقت طويل واجمة ساكنة والمكان مظلم، بعدها طلبت مساعدة جيرانها وقاموا بدفن جثة السيدة "مارينا"وتشيعها و"ريتا" تمزق نياط قلبها. قضت تلك الليلة وهي تسير في أزقة القرية ظلت دقات قلبها تتسارع وكأنها محمومة حتى وصلت إلى بيت السيدة"مارينا" فدخلته وكأن كل شيء يعوي حولها، مرت الأيام والشهور وهي تساعد الجميع في كل شيء وفي أي وقت، الكل يثق فيها وفي حبها لهم وخاصة النساء اللواتي تولدهن، وعندما تسمع إحداهن بكاء وليدها وتقر عينيها به، تتذكر

"ريتا"وجه أمها المشرق وكأنه شعاع الشمس الذي كان يضئ عتمتها، ولكن قسوة الحياة أعدمت ابتسامتها.

اليوم عالق في جوفها ظلام لا تشرق له شمس أبدًا، خريفها دائم، وأغصانها تتساقط كالموتى، تحتوي خيباتها بنفسها ولنفسها.

في يومٍ احتاجت لفتاة تساعدها في عملها فعرضت على إحداهن فوافقت، مرت الأيام وإذا بهذه الفتاة قد حَمَلت من السِّفَاح وتريد من"ريتا" أن تخلصها مما هي فيه، فأقنعتها "ريتا" بأنها لابد أن تكمل حملها؛ لأن الإجهاض جريمة وحرام، وأنها سوف تساعدها لتتخلص من مولودها وسوف تتواصل مع إحدى الأسر لتتبناه شرط عدم معرفتها بيانات تلك الأسرة، فوافقت الفتاة حتى أصبحت أكثر إخلاصا لها بالفعل مرت الأيام والشهور وهذه الفتاة في رعاية "ريتا" حتى أنجبت وخلّصتها "ريتا"من مصيبتها، منذ ذلك اليوم ومَن تريد التخلص من مصيبتها تأتي "لريتا" في الخفاء ودون علم أهل قريتها، وبمساعدة تلك الفتاة يأتي لها الكثيرات، ويدعون لها في الصلوات لما تفعله معهن من مساعدات جليلة، حتى ذاع صيتها بين الجميع أنها ملاك الرحمة داخل القرية.

تمرالسنوات وتستدعي إحداهن "ريتا" لتقوم بتوليدها وفي تلك الأثناء يأتي رجلًا ويفتح باب السيدة "مارينا" أخته فلا يجدها، فيدخل قبوًا أسفل البيت ليصاب بصاعقة كادت أن تؤدي بحياته.

إنها بقايا عظام لأطفال مواليد ودماء تملأ الأرض ليستدعي الشرطة في القرية، لتكتشف أن "ريتا" تعمل لصالح جمعيات بيع الأعضاء، وفي تلك الأثناء تدخل "ريتا" لتصاب بحالة من الصرع فتعترف وتقول أن مَن علمها ذلك هي السيدة "مارينا" أخته؛ فكانت تقوم برعاية فتيات الليل في بيتها وتغدق عليهن العطايا والاهتمام حتى يلدن ويسلمنها مواليدهن ويشكرنها على معروفها لتنتزع أعضاء أبنائهن وتبيعها للتجار والأطباء، دون أن يعرف أحد من أهل القرية بذلك فهي ملاك الرحمة عندهم جميعًا.

وكانت عندما ترى "ريتا" في حالة غير طبيعية تعطيها طفلًا فتقوم بتقطيعه إربًا إربًا حتى تهدأ، حتى أصبحت لا تهدأ إلا وقد قطعت عمتها إربًا لينظر هذا الرجل إلى"ريتا"ويتمعن النظر فيها ليجدها تشبه الفتاة التي كان يتردد عليها منذ واحد وعشرين عامًا، والتي أنجبت منه فتاة وكانا يريدان التخلص منها فتركاها على ضفة النهر الخلفية، فسأل مَن حوله عن أهل "ريتا" فدلته الفتاة التي تعمل مع "ريتا" على عمتها، ليحترق حسرةً وقهرًا عندما يراها ويعرف أنها عمتها. الرجل يغتاله إحساسٌ يقيني بأنه يعرف "ريتا"، سأل عمتها مَن "ريتا"؟!

تمر الأيام والشرطة تقوم بإجراءاتها ليكتشف الرجل أن"ريتا" ابنته وعمتها أمها.

الهاويس

تأتي المِحَن عندما يغضب النيل، سليل الفراديس، لم يكن تقديسه من فراغٍ؛ جاء على شكل الإله "حابي" فقدّروا قيمته وعطاءه، وصَوّر المصريون النيل بهيئة مخلوقٍ يجمع بين صفات المرأة والرجل كرمزٍ للخصوبة والنماء، أتى الصباح باكرًا لأحد أبنائه فكان موجه هائجًا، كان أخوها مدللاً، يلعب ويمرح وسط أصدقائه.

واليوم يتولى حكم بلاده، ترك مَنْ قبله أعظم البصمات من العلوم والآثار وما تحمل البلاد بين طياتها من أسرار، فكان الشعب ينهل من الكنوز والذهب من غابة الأحلام فتمكن من حوله من ريع البلاد، وجذب المناصب وجمع الصفقات، ولأن المدلل أصبح سفيهًا وبلغ من العمر أرذله، توقفت الأنشطة وأضرب الكل عن الضرائب، وبعثروا محتويات المخازن والثروات فلم يعد هناك سيطرة، الكل يقتطع من البلاد وهو لم يستطع الإمساك بزمام البلاد ولا العباد، فسقط الشعب في براثن الجوع والفساد، والكل بين الفرم والطحن والبعض ينغمس في اللهو، ثوراتهم عبارة عن ذبحٍ وقتلٍ وجنود البلاد مشغولون في السلب والنهب، وجاء مَن يقف على الحدود متطلعًا فاغتصب وسرق ما فيها من خيرات، اليوم اسْتَشْرَتْ الأمراض.

فكانت شقيقة المدلل فاتنة سمراء، وجهها يشبه القلب في رقته، ذات الأناقة، هائجة كالنيل يحيطها الجواري من كل الاتجاهات، ترتدي نفيس المجوهرات، هي أجمل بنات عصرها، والنيل يعلن زرقة عيونها كتحور في جمالها، الكل أصابهم الذهول من جمالها والعاشق يحاول اغتيال قلبها، كم غازل فراشات ربيعها.

جاء إليها وأعلن عشقها، سبحان مَن أَسْرَى بنبضها على ضفاف نهره فكانت الوردة والرَّيْحانة لقلبه، فعزفت له أحلى الكلام، وسبحت معه في الخيال، لعل الله أن يحقق لها ما ترنو من آمال، حبيبها وشاح القانون، وراعي الأخلاق في بلادها يجلس بجانب أخيها المدلل ليتحكما في العباد، هي تعلمت من أهلها فن الإدارةوكيف تُحلّق حول ما يرنو إليه عقلها، وتمضي الأيام بها لتراه متناقضًا، لا تعرف كيف تحدد طباعه، هل هو هادئ كالنسمة العليلة، أم هائج موجه عواصفه رعدية أليمة، فهي تراه متلون كقوْس قُزَح، عالمه غريب، حتى إنها لم تحدد لونه المفضل، يعلن غضبه عَبْرعلامات وجهه العابسة ورفع حاجبيه الهلاليين.

تراقصت صفحات أيامها معه، حتى أصبحت تلوك بقصتهما الأفواه، هي تتحدث معه عن كل شيء وأي شيء وهو الصامت في سمائها، ينتهك الحقائق، والأعراف، والقيم، ويطيح بكل معاني الإنسانية ليُضل شقيقها ومَن حوله، فساعد في تشويه البلاد، وضاع مفتاحه الذي يفتح كل مغاليقها، ومات ضميره ليحصد أعلى الأوسمة، هَوَس المناصب

والرتب جعله يبيع أخلاقه، فتوالت الصدمات على رأسها، لقد أعلن الشعب المرض العُضال لتسقط البلاد، بلادها التي احتضنتها الجغرافيا، وأعلن التاريخ عظمتها، ووصلت حضارتها عنان السماء فتمتع أهلها بهذا الإنجاز الثقافي والإنساني دون غيرها، وبقدر هذا الحد من العظمة كان السقوط مروعًا، والمخاض ثقيلًا على قلبها.

مَن كان يختفي وراء ضعفه هلعًا، الآن يعلن قوته ووقوفه في مقدمة الصف، لقد غابت العقول وتاهت البلاد، فأصبح الكل في انهيارات، يسمعون بآذانهم التهديدات، والبلاد تتأرجح بين المرض العُضال وبين مَن ينهب في البلاد.

حتى ألقت الثورات بهم في بئرالعناد، ولأنهم أنذال مثل حبيبها، أعلنوا الحرب على شقيقها، ولأنه سفيهٌ يترعرع معهم في فسادهم، اغتالوه فضاعت بلادهم حتى أصبحوا لا يرون إلا ظِل أقدامهم، أو فض بكارة نسائهم.

الشقيقة اليوم تُلفح بالصعقات من كل اتجاه، فلم يستطع رجل القانون زوجها حماية شقيقها بل كان كالطيورالجارحة ينهش في فقيرها حتى شارك معهم في اغتياله لينال من البلاد نصيبه.

اليوم الكل يطالبها بالجلوس على كرسي عرشه؛ لتكون القائد المُلْهِم والمنقذ لبلادها هي مَن يثور ولا يعلن دمع العيون، ودّعت الندامة

حافية على عُشب عرشها تصول، تتسلق الأمل وستغتال مَن اغتال نور قلبها والعيون، فأصبحت كنور الشمس يشدوعلى وترٍ حزينٍ.

تلك المُنَعمة وسط القصور، اليوم هائجة كالنيل، أَبَت أن يغفو لها جفنٌ حتى تملّكت روح الإنتقام منها لتثأر لشقيقها؛ فكان حزنها يشتهيهم فأقامت الحصون وشيدت أعظم قصر في التاريخ متصًال بسراديب لا أبواب لها تنتهي بهاويس متصلًا بنهر النيل، لتدعو هؤلاء الأندال لبلاطها، وقبل وصولهم استعادت نفسها ونفضّت حزنها، فتزينت ووضعت بصماتها لتغرسها في أعناقهم فدعتهم من كل حَدْبٍ وصَوْبٍ وأعلنت الموائد والأفراح احتفالًا بانتهاء التشيد، فلما اكتمل شملهم أوصدت عليهم الأبواب وفتحت الهاويس لتدعو تماسيح النيل لتقدم لهم أعظم مائدة طعام في التاريخ فغرقوا جميعهم، ليشهد النيل ابتلاع قلوب تلك التي تشبعت بغدرهم.

****

حَيَاة

جلستْ على مقربة من شُرفتها، سرق عينيها ضوْء القمر، أخذت تتأمل سِحْر السماء، ثرثرةٌ داخلية تنتابها، حديثٌ متواصل بينها وبينه، تُغمض عينيها قليلًا وكأنها استلقت على كتفيه أخذت تحاكي طيفه، تعانق روحه، تواري أمنياتها خجلًا، تداعب روحه بعشقٍ، تتدلل إليه بلهفةٍ، يناديها صغيرتي، لا يتوقف مطرالأشواق بينهما، أعشاش عصافير تخبئ نبضها تغتالها بقوة، وكأن روحها وُلدت الآن، ترتدي ثوبًا بلون الزهر صافي كالنهر، ينتابها حبٌ وبركان، وفي غابة ليْلِها إعصار يحرق جفنيها، تستيقظ فجأة لتعلن أنه سواد رحيله؛ إنه فَرْط الحب الذي منحته إياه، تفاصيل لا تنتهي، كانت أشد وطأة على قلبها، تعلن الانكسار وتشقق الروح، انهيار لا ينتهي، بركان اخترق نبضها، تنظر من شرفتها لا يوجد يدٌ تلوح لها، تنتظرها، تناديها من بعيد، هنا أيقنت أنه الفُراق، فقررت الانتحار؛ حتى تحافظ على روحه داخلها إلى الأبد وأثناء رحلتها إلى الهبوط رأت نوافذ جيرانها التي يختبئ وراءها الكثير؛ رجلٌ زوجته في العمل يخونها مع الخادمة يقال عنه وَرِع للغاية، فيصاب بالإيدز ليصارع المرض طيلة حياته.

أخري يطل منها زوجين هَرِمَيْن، يجلس الرجل على حافة السرير يناجي زوجته بلهفة أنفاسه ألا تتركه وترحل؛ فهي بلسم الروح وذكريات العمر، هي أروع ما قدمت له الحياة.

نافذة أخرى وإذا بتاجر مخدرات يجهز العُبوات من المواد المخدرة وبحوزته مؤثرات عقلية، وأقراص شفافة لتدمير الشباب، ودفتر ملاحظات ليُدَوّن ما قام به من وزنٍ وبيعٍ، ويحسب كَمْ مكسبه من هذه العمليات، يا له من أحمق!! يلقي بهم في غيَاهب الهلوسة والتعاطي، ويطيح بهم إلى الهاوية، ليخلو ضميره من الرحمة ويبتلع قلبه الرأفة.

أخرى يطل منها طفلين يجالسهما كلب يحرسهما؛ حتى تعود الأم من العمل، أحدهما يبكي بحرقة والآخر لا يجد من يطعمه.

وأخرى زوْج يتناول طعام العشاء وزوجته تصرخ وتنهار وتخبره أنه ربما يكون العشاء الأخير بينهما، ليُغْشى على الزوج والطبيب يحادثها تليفونيًا ليبلغها أن هناك خطأ قد حدث عند معاينة التحاليل الطبية من طرف الممرض وينفي إصابتها بالمرض الخبيث.

وأخرى بها زوجين تغمرهما السعادة ينشدان الأمل، يغزلان المستقبل القريب، يعزف بينهما الحنين تجرفهما الأشواق وعواصف الغرام.

وفي النافذة الأخيرة المعزيات أثناء وجودهن للتأبين يتحدثن عن زوج السيدة وماذا بعد التأبين وهو لا وارث له؟! مَن يرث تلك السيارة الفارهة وهذا البيت الكبير، مَن يساعدها في أمور المعيشية؟!

حتى انبطحت أرضًا وفي آخر أنفاسها ترى أطفالًا يلتحفون الشوارع، يسيرون في الطرقات دون أبٍ أو أمٍ، دون مدارسٍ، دون دراسةٍ، دون دفءٍ مَنْسيين بلا ضفاف رحمة ولا مأوى، دون إنسانيتنا، دون ما يُسمى بمنظمات حقوق الإنسان.

لتدرك أن عشوائية الحياة عواصفها رعدية تهبّ ثم تنتهي لتبدأ من جديد، حياتها ليست جنينًا في رحِم الماضي؛ فروحها تستحق الحياة، ستقابلها لتتعرف عليها من جديد.

****

غُرْبَة

الكلُ فوق رأسه غرابٌ ينعق، أصبح يعتاد الدم والحشد، براءة الطفولة أسروها، الأطفال لا يسألون متى يأتي آباؤهم، هم يتساءلون مَن شهيد اليوم، الدهر يلقي بهمومه عُنْوَة على الشعب، الوطن أصبح بقايا أطلال وبعض من الرُّكام، دفنوا جدائله بين سعفه.

بصيصٌ من الذكريات يحمله في حقيبتة الممتلئة بفضائح وطنه وهو يتسلل خارجه، الحزن أذبل دروبه فذرفت دموعه، وتبعثرت بين يديه خارطة وطنه، يرى دمه بألوان عدة، البعض يسرقه، والآخر يقتله وآخريحاول حرقه، وطنه مربوط بأيادي متآمرين، وجاحدين، يتراقصون على جراح الوطن، يتساءل هل هرب من موتٍ إلى موت محقق، أم سيموت في عُرض البحر؟ يردد رب السماء سيفضحهم، عاش الجبناء ومات أبوه، دُفنت بتلات العدل، وشُردت الإنسانية.

يتجول بين حكاياتٍ لم تكتمل بعد، يحمل على صفحة وجهه قناعًا مزيفًا من السعادة من أجل أمه فهي سيدةٌ مُسنة ووالده قُذِف في حفرته قَسْرًا أصبح جِيفة بين الأموات إثْرغرقه، ترملت غيمات أمه، يحمل كفن أبيه المُدجج بالغربة والألم.

فأبوه ضحية جديدة من ضحايا الهجرة غير الشرعية، ظروف الحرب دفعته وأسرته لذلك، لا يملك أَوْس وأمه سوى صرخات الرثاء الحادة لأبيه ووطنه، حالة من الاكتئاب والعُزلة تسيطرعلى أَوْس، الابتزاز المعنوي يقتله، يجول بخاطره إلى تلك الجثث التي تسحقها الأقدام والجماجم التي تتناوبها الكلاب والضباع، أرواح الأبرياء تُنتهك حُرْمتها وتُنهب ثرواتها لا ذنب لهم- "بأي ذنب قُتلت"- لقد سُرقت أرضهم وضاعت في الأفق البعيد شمسهم.

الغرباء يعربدون فيها، أطماعٌ دنيئة تتحكم فيهم، لقد اختفت المنظمات الحقوقية والأعراف الدولية، اليوم الكل محفوف بالمخاطر، محاكمات صورية، اغتيالات وإعدامات.

منذ وصوله لهذه البلد وأَوْس يحاول الاندماج فيها إلا أن مستوى الحياة لم يكن ورديًا، قطعة من الكرتون على أرضٍ ربما تكون عشبية أو صخرية يدثرون بها ليلتهم، رائحة الطعام القادمة من البيوت العامرة تعلن حرب الأمعاء عندهم اليوم هم غرباء مشردون، وحوش الشر ترمقهم، أزهار الخيْبة تدمعهم نارًا، اختلاف الديانات والثقافات وكذلك اللغة كل ذلك يعوقهما في ذلك البلد، لقد قُبل أَوْس بالرفض والتشكيك فيه، الغيوم تحوم حول حياته وأمه المسنة.

يا مَن لذلة قــومٍ بعد عزهم ... أحال حالهم كُفرًا وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان

(من كتاب الغربة للشعر الأندلسي)

يقف في طابور المعونات والمساعدات ممن يقدمون أيدي العون للاجئين ليعلنوا للعالم حرمانهم وتشرد آمالهم وضياع وطنهم، وآهات أحزانهم، وإذا بأَوْس يرمق من بعيد طفلة صغيرة قادمة لتقف في الطابور، وإذا بنسرٍ ينهشها وهي تواصل الزحف بجسدها النحيل، ومن بعيد يقف شابًا يحمل آلة تصوير كي يوثق هذا الطابور الهزلي، وذلك البؤس الذي يقفز من العيون حاملًا معه غيوم مستقبلهم وتلك الطفلة التي أودعتهم حياتها كوثيقة لتشردها ونزف آمالها لتعلن للعالم آلامها، وسرقة وطنها، لقد سُلبت حياة اللاجئين وهم يوثقونها بحقارتهم وكأنهم ينهالون ضربًا بالسيف لتقطع رقابهم.

اليوم يوزعون عليهم الطعام الفاسد؛ كي يسد رمق بعضًا من لهيب بطونهم وينتهك كبرياءهم، معونات معجونة برائحة الذل والمهانة لا تصل إليهم إلا بمرورها على الموظفين الحكوميين والتكتلات الشعبية ليستفيد منها الجميع ثم يبعثون بالبقية المتبقية إلى اللاجئين، ومخيمات التشرد والإهانة، ما لا يرمق العين ولكنه يرمق نزيف دموعهم، ولهيب النار في بطونهم، يرمق البؤس والحرمان، ويلعن كرامة الإنسان في تلك

الصور التذكارية المرفقة بتلك المعونات، إنه اللجوء الشاق لذلك يضطر أَوْس إلى أن يعاود رحلاته لبلد آخر وفي طريقه للمطار يرمقونه بعيونهم، يتهمونه بحيازة حفنة رمل من وطنه.

سجنوه وتحفظوا على أمه المُسنة خمسة أيام في بيت العجزة ليخرج بعدها إلى حدود تلك البلد الأجنبي حيث الصقيع والبرد، يصل إلى مخيمات اللاجئين وكأنه ينتظرهلاكه بروح راضية مطمئنة، ولكن ما سربل النور بين طيّاته أنه كتب لقبه باسم بلده كلقب له دون اسم أبيه وعائلته.

في مخيمات اللاجئين تعرف على فتاة أحلامه سارة، فأطلق سراح نبضه، فكانت هى الثقب المضيء الذي بعثه الله له، أحضرت الطعام لأمه المسنة وقامت على رعايتها مما جعله يتفرغ إلى العمل والدراسة في آنٍ واحد، سارة فقدت أهلها وهربت من الوقوع في السَّبْي.

تمرالأيام ويتعرف أَوْس على كل المقيمين معه في المُخيم، يتفاعل معهم ويقدم لهم الخدمات التي يحتاجونها مما جعل أمه المسنة أمهم جميعًا الكل يرعاها ويخاف عليها. لقد خسر أَوْس والده، وخسر منزله، وخسر ما تبقى له من مالٍ في رحلته، لكنه لم يخسر ماهية وطنه ليصل إلى هنا.

اليوم سارة تقف بجواره تساعده في العمل بأحد الفنادق الكبرى ليكون هو الموظف الأبرزعلى الإطلاق فيها، ليحصل على مركز قيادي وراتب يؤهله للوصول إلى أهدافه.

اليوم يحصل على شهادة التخرج، ليسمع الخبر الأجمل على الإطلاق؛ يحصل على الإقامة لمدة خمس سنوات ليذهب وسارة ليعلنا إقامة مشروع شركة بينهما، بعدها تخبره الحكومة بإنهاء الدعم المالي له ليرفع رصيد كبريائه الذي حُرم منه منذ خروجه من بلده الأصلي ليبدأ بناء مستقبله فاقدًا عطر وطنه.

يتزوج أَوْس بسارة متوجًا قصة حب دامت عدة سنوات ليحقق أولى أحلامه، يذهب معها ليقضيا شهرالعسل ولكنه يشعر بالقلق، يشعر بأن قلبه ينسلخ منه، يردد مرارًا ليتني أصطحبتُ أمي معي، لقد عاد سريعًا ولم يكمل مدته ليجد نفسه يتيمًا، تعلن أمه المسنة وداع أيامها، وانتهاء رحلتها.

تمر الأيام والشهور وأوس يتحسس ملابسها، متعلقاتها، يستنشق أنفاسها يعرف أنه يعيش ببَركة دعائها له، اليوم نتغيرملامح حياته، اليوم يترنح بين أرجاء البيت وكأنه ثَمل، يشعر بأن لا شيء له قيمة ما فائدة أن يربح الأموال ويخسرعطره المميز وطنه وأهله، لو كان زعماء وطنه أوفياء لشعبهم لما وصلوا لما هم فيه الآن.

أَوْس اليوم ممزق؛ كله يتمرد على كله، ينزف صمتًا، حرب ضروس بينه وبين روحه، بين حقيبة ذكرياته التي لا تفارقه، ترقد على أوتار قلبه فتمزقها وبين حاضره، لقد تحمل الكثير والكثير حتى أصبح كجبلٍ من الثلج بموت أمه.

هو خارج أسوار وطنه يعرض تعبه وسهره للبيع، يبني ويُعَمّر هنا والطغاة يستبيحون وطنه، ينهشون خيراته، يتجمهرون حوله، مَن سيفوز به، تمر الشهور، وسارة الصامته تشعر به وبآلامه، تقوم بأعماله في الشركة، تراها في ظاهرها قوية وهي الهاشة الباكية رغم ثغرها الباسم لأَوْس، فهي ليس بقدرتها البكاء، لقد اكتفت بما مرت به من أحداثٍ وفقدان هي الأخرى تخبئ بين ثناياها ما يهد الجبال، هى دُمية خشبية مبتسمة.

في يومٍ مشرق تزف سارة لأَوْس خبر حملها فيسجد شكرًا وحمدًا لربه ويقول:

سيمتلئ البيت بالبهجة، سيحمل معه الأمل، سيربطنا بتلك المدينة، ربما معه نتجاهل بعضًا من الذكريات التي دائمًا ما تشدني للماضي، سيكون أوكسجين حياتنا.

يشكر الله وينوي الذهاب لبيت الله الحرام ناويًا حجة له وعمرة لأمه وفي رحلته المقدسة تبلغه سارة بقدوم مولودهما البِكْر "محمد" ليسجد سجدة الشكر في بيت الله الحرام يبكي ويُبكي المصلين حوله.

اليوم تستيقظ سارة وإذا بالأصوات تتعالى، صرخات تخترق الأجواء تملأ الأركان، الكل يجري، الجدران تتساقط، الجيران يستنهضونها، كل شيء يهتز، تلقي ببصرها على كل شيء وتبكي، تبكي تلك الجدران التي احتضنت حبها الأول وكيف عاشا أجمل قصة حب رغم الاختلاف

الديني والعقائدي بينهما، رغم اختلاف جنسيتهما إلا أنه لم يشعرها يومًا بهذا الاختلاف، كيف يأتي أَوْس ولا يجدهما؟! تصول وتجول في كل زاويا البيت تحتضن محمد وتنهار بكاءً والرضيع يبكي معها تذهب إلى غرفة أمه تحتضن متعلقاتها، وتُقَبّلها بحرارة، تدعو لها بالرحمة، تحمل معها حقيبتها التي تحتفظ بها وكأنها رضيعها الثاني تشعر بالانهيار لا تسمع شيئًا، تجلس في مكانها ظنًا منها أن الزلزال قد توقف، تذهب إلى المطبخ لإعداد طعام الرضيع لينتهي كل شيء، مازالت تحتضن الرضيع ومعها الحقيبة الجلدية، لقد فقدت سمعها وانهار بها البيت، ليجدوها جثةً هامدةً محتضنةً رضيعها والحقيبة، ويأتي رجال الحماية المدنية والشرطة محاولين فتح الحقيبة الجلدية ليجدوا وثيقة تعلن فيها إسلامها، لتكون مفاجأة لأَوْس.

****

رَحِمُ الخُلُودِ

رئيسٌ لشركة تجارية كبيرة، شخصيته كارزمية، لديه قدرة فائقة للتأثير على الآخرين يتصف بالصرامة، لا يحب الهزيمة في أي أمرٍ من الأمور، يجلس اليوم مهزومًا، يشعر بالبرد الشديد والظلام الحالك في كل الزوايا، يرى الأبواب حوله مُوصَدة، والنار مُوقَدة فيقول:

كانت جدتي تعامل أمي معاملةً سيئةً للغاية؛ لأنها تأخرت في الحمل وبعد خمسة سنوات رُزقت بولدٍ هوأنا ولم تمضي شهورٌ حتى مات والدي، زادت رعشة الضباب، والصباح تاه، ازدادت جدتي قسوةً على أمي، حتى دُفنت حناجرالأمل فيها، أخذتني أمي وعشنا في بيت أبيها، كان أهل أمي يكرهون جدتي ويقولون أنّ أبي كان يحب جدتي ويحترم كلامها وينفذه رغمًا عن إرادة أمي، وأن جدتي كانت تسخر من أمي وتستهزئ بها؛ فتساقط الجميع عند حذائي، وكرهتُهم.

بعد فترةٍ من الزمن طلبت أمي ميراثها وميراثي فأعطوها ميراثها ورفضوا أن يعطوها ميراثي، فأخذت تؤربجها الكارثة، حتى أصبحت لغات العالم عقيمة أمام أمي، لا شيء يقيها جبروت كرههم، رضعتُ منها حتى ارتويتُ كُرهًا، مرت السنوات ودخلت الجامعة، وذات يومٍ قابلت أحد الأصدقاء وكان مظهره يوحي بيسر حاله وشدتني روحي إليه، عرفت أنه

ابن عمي، فبعدتُ عنه وأقسمتُ أن يرتدي سُتْرة البؤس والحرمان كما ارتديتها، وأقسمتُ بيني وبين نفسي أن أكون متفوقًا عليه، كنت أراه أمامي وكأني رأيتُ عِفْريتًا فيشتد غضبي والنار تشتعل في عروقي، وخاصةً أنه كان محبوبًا بين أصدقائه في الكلية.

تخرجتُ من الجامعة وكنتُ الأول على دفعتي فقدمتْ لي إحدى الشركات الكبرى عرضًا للعمل معها وبالفعل تم تعييني فيها ومرت الشهور لأجد ابن عمي يعمل معي ليزداد حقدي عليه، وكأني أسعل وأصرخ، أراه يقترب مني في كل خطواتي كوجه عاهرةٍ للعابد، أصبحتُ أتوعده في كل خطواته وأقطع عليه الطريق.

وإذا به يدخل مكتبي ويقول: معذرة أريد التحدث معك.

أزجره، وأطرده من مكتبي، وأردد الشتائم على مسمعه، وهو لا ينطق بحرفٍ، ويترك لى ظرفًا يضعه على المكتب ويذهب دون صدٍّ أو ردٍّ.

جلستُ وأنفاسي تتلاحق بصدري، وكأني فريسة بين فكين أصول وأجول بعقلي، أتذكر كلام أمي وأهلها عنهم وعن تصرفاتهم القاسية معها، تنفستُ بتنهيدةٍ حارقةٍ كادتْ أن تشق صدري، تأملتُ الظرف وتخيلتُ بأن داخله قنبلة موقوتة تهدد حياتي، جُنّ جنوني، نسجتُ أوهامًا وحكايات رضعتها وتشبعت روحي بها من حكايات أمي وأهلها، وبيدٍ متهورةٍ متسرعةٍ قررتُ فتح الظرف لأجد شيكًا بمبلغ أربعة ملايين جنيهٍ ومعه ورقة مكتوبٌ فيها (هذا نصيبك في الميراث من أبيك

وجدتك تتمنى لو رأتك لمرة واحدة قبل موتها. مع مودتي يا ابني، جدتك).

لتنقلب الأمور والحسابات كلها ويتعطل عقلي عن التفكير، وكأن صاعقةً ألقت بي في غَيَاهب مكان سحيق، أيامي أصبحت حُبلى ومخاضها ثقيل، هل يمكن للغصن الذابل الواهن أن يعود؟! لم أستطع العودة إلى البيت إلا بعد وقتٍ طويلٍ.

ذهبتُ إلى البيت وكأني في طريقي إلى حافة الهاوية وأخبرتُ أمي بما حدث فكادت تطير بجناحيها فرحًا وحمدت الله لحصولي على ميراثي وحقي، ثم أكملت وَصْلة الشتائم عليهم وتوعدها لهم.

لم أخبرها وقتها برغبة جدتي في مقابلتي، تمر الشهور وأقابل فتاة جميلة، وكأنها فتاة الأحلام بالنسبة لي، تجمعت فيها كل الصفات التي تدعو أي شابٍ لاحترامها وحبها لاتفارق مخيلتي أبدًا، عشتُ قصة حب معها دون أن نتكلم أو نتقابل.

في يومٍ غائم أراها جالسةً مع ابن عمي على طاولة واحدة، فيزداد كرهي وحقدي والحزن يغمرني، تمر الأيام أكتشف أنها أخته، أحاول الحديث معها أجدها نسمة تؤنس روحي وسط زحام أفكاري، وجدتها مخرجًا لعُنفواني، وترميم ثقوبي، وتجاوزعَثراتي، هي الصديقة والحبيبة، معها لستُ بحاجة للتظاهر، أواستهلاك طاقتي بل هي دفء المشاعر ورونقها، وجدتها هي الأخرى تخبئ داخلها مشاعرًا لِي، عدتُ إلى البيت وكأني

أعانق ناطحات السحاب أحكي لأمي عما يحتويه قلبي وعن فتاة أحلامي، لتقول لي أنهم يريدون أخذ مالي بطريقة شرعية جديدة، ثم تبكي وتنظر لي بألم وتتوسل لي أن أبعد عنهم جميعًا.

الأفكار تتزاحم داخلي، ويزداد حزني، ولكني هذه المرة أقررالذهاب إلى بيت جدتي دون أن أخبر أمي، حددت الميعاد مع ميادة، وشعرت بأن الأيام ثقيلة وأنا أترقب الموعد، وكأنه الموت، هل سيشتد مخاض أيامي العسير؟! أم سأجد ثقبًا يشع نورًا وأملًا؟! هل ستكون ميادة هي شَفَق أيامي التائهة، أم ستعلن غسقي من جديد؟! هل تلوح لي الأيام بضحكتها أم تطلق رصاصها وأنتهي؟!

هل أتعافى من المعاناة التي عشتُ عمري أحملها على عاتقي !!، أم أعلن انهزامي، وأطلق العنان لأفكار أمي وكرهها لهم ثانيةً!

ميادة الروح التي تغازل فؤادي، أرتشف معها أريج الشوْق، اليوم أشعر بثقل رأسي وزيادة أشجاني، جاء موعد الزيارة وروحي تتجذر من الألم وكأن النار تحيطني من كل اتجاه، دخلتُ بيت جدتي والوجوم والخوْف يحاصراني، الأفكار تحشد جيوشها حولي وتلطمني، أتخيل تلك السيدة الشريرة ذات الوجه الأسود الذي يخفي وراءه العواصف الرعدية المحملة بالأتربة التي أهالتها في وجه أمي.

أمي الشمعة التي أضاءت سماء عمري، أضاعتْ عمرها لتربيني وتعلمني، رفضتْ كل مَن تقدم يطلب يدها ورغم صغر سنها عاشت لي وحدي، أي موعد هذا الذي زرع فزّاعة في قلبي لهذا الحد؟!

جلست مع ميادة نتبادل الحديث فتدخل سيدة وجهها يشع نورًا وكأنها تراقص القمر لتجلس بدلاً منه، تدخل وتلقي السلام وتقف أمامي وتبكي بغزارة، وتأخذني بين طيّات روحها، صوتها ملائكي كأنه الآذان تعانقني عناقًا أشعر معه بأني عانقتُ نجوم السماء أبادلها العناق وتغفو روحي على صدرها، فاذا بها تُقَبّل رحيق الحنين على ضفاف قلبي، ليفك قيود صمتي ويغرق كرهي في بحر لُجّيّ، يدهس ما مضى، أرتشف خمر عناقها، يتكحل نبضي بنبضها، وبين تنهيدتها وتنهيداتي أتَشَرّب ماء الورد عبر عناقها لأحزم أشواك الكراهية التي كبّلت روحي سنينًا طويلة وأدهسها تحت أقدامي.

يستيقظ الحنين وينسج جداول حب ومودة بيني وبين أهل أبي، فتنبت زهرة الحب وتعود قداسة صلة الأرحام كزهرة الخلود الأبدية، فأودع ثرى الحقد الذي التحفتُ به طيلة حياتي الماضية؛ في أحضان الطفولة المبكرة أرضعتني أمي تنهيدات الألم التي حاصرت جسدي بجمرٍ من الحزن والكره حتى جنحتُ بعيدًا عنهم، جفت ينابيع المودة والرحمة بيننا، واحترقت أغصانها حتى سقطت ثماري دون نضوج.

الغيْثُ يهطل على قلبي يطفى رعشة كرهي وحقدي، ويكشف غُمة روحي لألتقط أنفاسي من جديد، وتُخَصِّب جدتي تربتي بحياة جديدة.

من الآن أبدأ أولى خطوات بناء مستقبلي؛ اتخذت كافة الإجراءات القانونية اللازمة لإنشاء شركة تجارية باسمي، أستمد عبق آمالي مع عبير "ميادتي"، أداعب الأحلام والرؤى المستقبلية معها، أرى الليل بين خصلات شعرها، والصبح يعانق وجهها الجميل.

أتمنى أن أنسج مستقبلي بين عيونها وأضفر أحلامها، انتويتُ التحدث مع أمي لزيارة لبيت جدتي. وإذا بها تُصدر العديد من الشتائم عليهم، ويصيبها الانهيار والغضب الشديد تطلب مني عدم تكرار الزيارة مرة أخرى، تمضي الأيام ولا تهدأ أمي، تتثاءب الحروف في حلقي حتى قررت أن أفاتحها في الذهاب إلى بيت عمي وطلب الزواج من ابنته ميادة، فتقع أمي مغشيًا عليها، أذهب بها للطبيب المختص يطلب مني إجراء بعض الفحوصات الطبية منها مستوى هرمون الإستروجين، والبروجسترون، ويسألني هل أمك تتناول أدوية العلاج الهرموني تاموكسيفين؟؛ لأن ذلك يؤدي إلى خطر متزايد في الإصابة بسرطان بطانة الرحم، يسألني هل يوجد في العائلة طَفرة جينية من الوالدين مثلًا؟، ويردف قائلًا أنّ مَن لم يسبق لهن الحمل يكن الأكثر تعرضًا لهذا المرض، أقوم بعمل كل الفحوصات الطبية اللازمة، يتضح للطبيب من خلال الفحوصات والأشعة أنها لم تحمل قط، وأنها لم تنجب من قبل،

كل أخوتها يكذبون الطبيب ويعنفونه، وهي في غيبوبة تامة، بعد فترة تصاب بآلام حاده في الرئتين وبعدها تفارق الحياة ومعها تشل حركتي، ويكون الصمت سيدي تختنق أنفاسي بدلًا عني، يختفي النهار ويعلن مغيبه، ويكسو الظلام أرجاء عالمي، أجلس أمام صورة أمي العاقر التي لم تنجبني!! أ مِنْ العدم خُلِقتُ؟!!! أم نبتة تكاثرت مع الشيطان؟!!، مَن أهلي؟! وكيف جئتُ؟!الخيْبة واليأس يحاصراني، ماذا أقول لجدتي؟! وميادة؟! ماذا عن... الميراث وميادة؟!

إنها أعظم حدث سُجِل في تاريخي يوم عرفتها، احتلت عالمي، غيّرت نظرتي المُسودة للعالم، الخذلان يفقدني مشاعري، الصدمات في رأسي تشطرني نصفين، هرب الأمان مني فكيف لى أن أصدره لها؟! كيف أمنحها الطمأنينة والسكينة وأنا لا أعرف مَن أنا ولا مِن أين أتيت؟! هل تقبلني وأنا مجهول النسب؟!!

اليوم أسخر من قدري، أتحسس يأسي، وكآبة أيامي القادمة، أنا ورقة رَثّة لا قيمة لها الريح أطاح بها، وقودها العويل ونبضها الدم.

ماتت أمي دون أن أعرف مَن أنا، يمتص اليأس أحلامي ومستقبلي، وأتشرب وَيْلات خيباتي.

أعيش وحدي وأموت وحدي وأبكي وحدي، فأنا رجلٌ تلفظه الأماكن والحدود، يغتال ذكري اسمي الوجود، إن قدري يُخفي على الثقلان، فكيف بي وليس لي بين البشر وجود.

تبتلعني الصدمات واحدة تلوّ الأخرى، تحولت إلى ذاك الشبح الغريب الذي يخلو من ألوان الحياة، ليتصيده الموت، وعندما تملكني اليأس جلستُ أكتب رسالة لميادة كمراسل مجهول الهوية مفادها:

ابن عمك يخونك ويضحك عليك، ويخطط للاستيلاء على أموالك، هو لا يحبك وسأثبت لكِ.

ووضعتُ السماعة عند إسطوانة سجلتُها مسبقًا؛ لأثبت لها صدق الرسالة لأتقن التمثيل وتنتحر أحلامي معها وأحكم على قلبي بالقتل العمد.

فجاءني الرد:

حتى لو أراد الاستيلاء على أموالي سأحبه حتى آخر رمق من عمري.

أمسكتُ بالورقة وقبّلتها ومشيتُ في الشارع دون أن أشعر بأي شيء، فإذا برنات الهاتف الخلوي، طبيب أمي يتصل ويخبرني بأن هناك خطأ في التشخيص وفي معاينة التحاليل الطبية وأن أمي سبق لها الإنجاب، وفي لحظة زهوي أتت سيارة مسرعةً صدمتني، أنظر حولي فأجد ميادة وأخاها وجدتي أمامي، فيكونوا بلسمًا وسكًا لندوب روحي، أبدأ معهم حياة جديدة، وينجلي خريف حياتي.

****

عِنَاقٌ سَاخِن

يندثرُ العمر وينزلقُ من بين يداي، وليلي مسكونٌ بنجوم مُفحمة، الحزن يُطْبق على روحي، الخوْف يحاصرني، لا أعرف كيف أخلعه مني، يركض في كل الأشياء أراه جاثمًا حولي. ابنتي قطعةٌ من روحي أحبها بقدر المدى، رفيقةُ دَرْبِي أميرة على عرش الندى، أقول لها: حبيبتي الأيام تقترب يا أجمل عروس في الدنيا.

ترد عليّ: حبيبتي ياماما، والله أنتِ نورعيوني يارب يبارك فيكِ.

فرحتها تملأ الدنيا من حولي فيزقزق لها قلبي ويختفي ألمي، الذي ليس له معنى إلا في رواسبه اللامنتهية. كم منحتِ حياتي روعةً مثل روعتك يا قلبي.

تتعاقب فصول الربيع بين وجنتيك لتسكب لونها الوردي بينهما وتعطرك بعطرها، أرجو من الله أن أكون أديتُ رسالتي نحوك على خير وجهٍ، أراني وقد اشتدّ زُهدي لكل شيء إلا لكِ يا عمري. "مها" اليوم تلملم أغراضها وكأنها تلملم معها ملامح السعادة داخل قلبي، تسدل الستارعلى حياتي، حبيبتي أنتِ نسمة ترتل آيات الحنين بين ثنايا روحي.

"مها" الخجولة حمامة السلام التي ترفرف حولي بعطرها، مشاعرها تفيض لتغمرني، صغيرتي تستعد لحياة زوجية أرجو من الله تعالى أن يوفقها

ويجعل السعادة دَرْبها، أتوجه إلى الله صاحب الفضل والعطاء خير البرية، اللهم أسعدها في الداريْن يارب العالمين.

أنتطلع في المرآة فلم أرَ إلا تجاعيد أيامي تُخفي ملامحي، تعكس ظُلمة واقعي ووجعي الذي لا ينتهي أبدًا، الليل يصارعني يغتال روحي كل يومٍ، ولا بلسم لِي سوى "مها".

لقد اكتمل نضوجي بدرجة كافية، لأدرك ما حولي ومَن حولي، كنتُ أعيش ثائرةً، اليوم الصمت لغتي اكتفيتُ، لم أصل لراحة قلبي قطْ، الخوْف على "مها" يسيطر عليّ، يرهق ذهني، يضطرني إلى مراقبتها مع أني أعرف أن ذلك يضايقها ويرهقها كما كان تَنَمُّري يرهق صديقاتي قديمًا، خواطري تسكنها الأعاصير، والأمواج العاتية، ذهني مشوش.

أخاف على "مها" من الشُّح العاطفي الذي عشتُ فيه، كان يبيدني يوميًا منذ وفاة أمي، أبي لا يهتم إلا بعمله وشهوته، يبتغي إرضاء زوجته بشتى الوسائل حتى لو كلفه ذلك إيذائي أنا.

كم عانيتُ من قلة الحنان، بحثتُ عن السعادة بشتى الوسائل ولم أفلح، أنا ضحية ذاك البيت، كم ارتديتُ الثياب الرَّثة، وتناولت بقايا الطعام، وسُحلتُ على الأرض ورُبِطتُ في السرير، تذوقتُ صنوفًا من العذاب، تتساقط أوراقي بعد أن تجف وهي لا تبالي.

أصبحتُ في مَهب الريح تعلمت منها التَّملق والكذب، كانت تُوقع بيني وبين أبي، تستأثر بأمواله وحدها وتحرمني منها، فضاجعتُ الفقر

وضاجعني حتى ارتويتُ حرمانًا، وحُرمتُ من أمٍ تدللني، وتظللني بعطفها، وتعطيني من خبراتها وحكمتها.

تعايشتُ مع ظلامٍ يّلفني مع الزوجة الفاضلة لأبي الظالمة لِي، ترعرتُ في أرض بُورالتي لا حياة ولا حب فيها، اعتبرتْ أنني دخيلة على حياتهما وليس من حقي أن أعيش طفولتي، اتشحتْ فضاء روحي بالسواد دمرتْ كل ثوابت التربية داخلي، كلامها قاسٍ وواقعي معها كان الأشد والأسوأ؛ يعتصرني الألم وتغتالني الهموم، لا تود فراقي أبدًا، قلبي يرتجف على فَلْذَة كبدي.

لا أريد أن أكفر بالحب؛ أنا مَن أضرمُ النار في جسدي؛ أتقنتُ اللعبة على نفسي قتلتُ روحي؛ فلم يكن لديَّ مهرب من الاحتراق؛ حتي سلختُ قلبي من بين ضلوعي.

سألتُ "مها"حبيبتي هل ينقصك شيء كي أحضره.

قالت: عندما أراجع أشيائي سيتضح ياماما إن كان هناك شيء ناقص أم لا.

ثم سألتها عمّا تريد تناوله اليوم قالت أنها ستخرج لمقابلة "أحمد" بعد الذهاب لمصفف الشعر، ابتسمتْ وتركتني أصارع أفكاري من جديد، ووضعت السماعات في أذنيها.

الذكريات تطاردني، تمطرني همًا تذكرت؛ يوم نهضتُ مسرعةً من النوم، وهرولتُ نحو الباب لأجد والدي قد أتى.

قلت لنفسي: اليوم أنسى تلك الأيام العِجاف.

جاء والدي من السفر، سأرمق الحياة لبعضٍ من الوقت ستعود، إليّ هويتي اليوم، الملعونة ستناديني باسمي، معدتي الفارغة ستمتلئ وكذلك جيوبي، سأشتري ملابسًا جديدة وحذاءً جديدًا، سأتناسى الشتائم أيضًا، أجلس بجوار والدي أتنفس الصعداء لبعض من الوقت، تدخل زوجته فتزجرني قومي اغسلي الأطباق قي المطبخ، يقول بابا اسمعي الكلام هي تريد أن تعلمك.

اليوم هو الأسود بالنسبة لي، أخرجني والدي من الدراسة بسبب إقناع زوجته له بذلك، الملعونة أنبتت بذور الفُرْقة بيني وبين والدي تمنيتُ لوانطبقت السماء على الأرض وطحنتها بين ضروسها.

سمعتها خلف الباب تقول لوالدي وهى تمرر أناملها على وجهه، إسراء كبرت، متي يأتي لها ابن الحلال ونفرح بها وتنتهي من تحمل مسئوليتها؟! يبتسم والدي ويحتضنها ويقول: إن شاء الله.

نفرح بها، هرولتُ نحو المطبخ وأنا أقطن الخيال وأقول معهما وأردد : حتى أستريح من وجهك وأنا أبصق عليها في الهواء، نعم سأوافق كي أخرج من هذا البيت الملعون، أودعه بلا عودة حتى تعيشي وزوجك كما يحلو لكما، كم مرة يزجرني ويضربني بسببكِ، تركتُ دراستي بسبب تلك الملعونة لولا حنان "أم يحيى" ما استطعتُ أن أعيش لحظةً واحدةً في

غياب والدتي، مرت أسابيع أود لو أني أسمع نبرة حنان تعانقني، ومع أول شاب يتقدم لي توافق هي و يوافق والدي وكذلك أنا.

هو شابٌ وسيمٌ، فارع الطول، عريض المنكبين، ينبثق من بين عينيه الوسامة، وافقت على الارتباط به لتتم الخِطْبة في هدوء ودون حضور الأهل ولا الجيران، يسافر والدي لعمله لأعيش مع تلك الكئيبة، كنتُ أبادلها الابتسامات وأنا أشعر بالقهر الممزوج بالوهن عندما يزوروني خطيبي غالبًا ما كان يأتي إلينا أكثر من مرة في الأسبوع منذ الصباح وحتى آخر الليل، كنتُ أتحدث معه دون تكلف في كل شيء، كان يأتي أحيانًا ويمكث لليوم التالي لماذا لا أدري؟!

في وجوده أشعر بعدم الراحة وخاصةً في النوم، كنت أنام عند "أم يحيي" جارتنا ضمتني إلى صدرها الحنون، وأصبح بيتها ملاذًا لي.

أم يحيي تحكي لِي أنها تقطن هنا منذ نكسة ٦٧م، دائمًا تدعو الله أن يوحد العرب على كلمة واحدة، فهي لا تنقطع عن الحديث عن فلسطين الحبيبة، وعن جمال شعبها وشمسها، وعن بيت المقدس وما فعله اليهود الصهاينة فيهم منذ٤٨ م حتى٦٧م.

كانت أمنيتها الوحيدة أن تسمع القرآن جهراً من الأقصى؛ ليهز ربوع فلسطين، وأن ترن الأجراس من كنيسة العذراء لتغمر ربوعها حباً ومودة وترفرف الحرية وتعود الأرض، كم دعت وألحت في جمع القدس الشرقية بالغربية.

كانت تود لو تستنشق رائحة الحرية في وطنها، تبكي كثيرًا وتقول:
إنه الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، هي معراج حبيبه صلى الله عليه وسلم.
تمضغ أعصابها تحت ضروسها وتقول:
فلسطين الطاهرة، أرض الرسالات، اليهود الصهاينة يمرحون وفيها يذبحون أطفالنا وشبابنا، يدنسون طهارة نسائها، لعنة الله عليهم أجمعين.
تبادلت و"أم يحيى" الحديث زوجة والدي تطلب مني إعداد الطعام، والقهوة، والمشروبات، وترحب به كثيرًا وتجلس معه ليتحدثا سويًا بأريحية، تخيلتُ أنه سيعوضني عن حنان أهلي، أسأله متى نتزوج؟! يقول: ظروفي لا تسمح الآن؛ عندما تتحسن الأمور سنتزوج فورًا، كنتُ أرمق اللامبالاة في عينيه، أسكت والظلام يلفحني، تخيلت أني تناسيتُ الكآبة وما أعيش فيه، هجرتُ حزني وتوجهتُ بخيالي وأحلامي نحو ليلة الزفاف والفستان الأبيض، ارتديتُ السعادة وتسلقتُ النجوم معه.
دائمًا ما كان يتفحصني ويداعبني وعرقي يبلل جسدي وأتلعثم في الرد، يتجول بعينيه في كل مكان يحاصرني، يقترب من مقعدي، وأنا أبتعد عنه.
كنت أحكي كل كلامه "لأم يحيي" فتبتسم ابتسامة غامضة وتتركني أسترسل في الكلام، كنتُ صغيرة لا أدرك ما يحدث، فتُقنعني بعدم مكثوه لليوم الثاني عندنا ولكني لم أستطع إقناعه أبدًا، الأيام التى

يتواجد أبي فيها داخل البيت نادرًا ما يأتي وإذا جاء لا يبقى طويلًا يودعني ويذهب، فأمتطي الخيال بقلبي، الربيع ينسج معه فستان عُرسي أصبحت أضئ كألف قمرٍ أو يزيد.

مرت الأيام والأسابيع وهو لا يبخل عليَّ بأي شيء أريده، في يومٍ باهتٍ ليس له شروق أحضر لِي هاتفًا جوالًا؛ غمرتني الفرحة عانقني بصوته الحنون؛ وأنا أبادله العِناق ليطول بيننا حوارٌ ساخنٌ يقع على إثْره الهاتف الجوال من قبضة يدي يتناثر كالشظايا تخيلت نفسي أميرةً وأنا بين ذراعيه؛ يدللني، يحتضني كنتُ أشعر أني أحتاجه؛ هو يبحث عن ملذاته وشهواته وأنا أرتشف معه وأنجرف في التيار لم أعِ أني عمياء وصلت إلى حافة الهاوية، حصدتُ الحسرة والخيْبة في تلك الليلة بفض عُذريتي، أعتليتُ معه سفينة الضياع في لحظة نشوة بيني وبينه، ضيعت نفسي، ألطم وجهي، أصرخ حد الانهيار، أين أنتِ يا أمي.. أين أنتِ!

اليوم أسكب دموعي وجفوني لا تنام، امتطت عُذريتي تذكرة سفرٍ دون رجعة، أضرمتُ النار في جسدي، أجرُ ويلات خيْبتي، قُد قميص عذريتي، سامحني ياألله.. سامحني يارب.

رشفتُ النشوة فهبّتْ العواصف الرعدية من كل حدْب وصوْب لتقذفني وترجمني بحجارة من سِجّيل.

أرى الانتصار يغتال زوجة أبي تتنفس الفرح وتغازل السرور، لقد رأتني معه، تركني وخرج مسرعًا ينظر إليّ بسخريةٍ يحمل زهو انتصاره وإشباع غرائزه الشيطانية، ألطم وجهي ألف ألف مرة.

رحل عني وفي وجهه نشوة الانتصار وهو يسخر ويتمايل يمينًا ويسارًا ويقول لي أضعتِ وقتي، أحدق فيه وأتنفس بنفس متهالك، لا حول لِي ولا قوة أصرخ وأبكي، وعيوني تنزف دمًا، اليوم يعود والدي من سفره، تستقبله تلك الملعونة يطلب منها أن يتناول شيئًا ويأكل فتحضر له شرابًا يشرب فتخبره بتلك الليلة السوداء ليلطمني، ويلطمني ويصيح بعزمه في وجهي بالصراخ والنحيب ليه كده؟! عملت فيكِ إيه؟!، عملت فيكِ إيه؟! حتى يسقط مغشيًا عليه بين يدايا.

أصرخ وأصرخ يتجمع الجيران حولي أسقط أنا الأخرى لأجدني في بيت "أم يحيى"، غرفة مظلمة، يفوح بين أرجائها لهيب النار الذي يتصاعد من قلبي، جسدي كله يرتعش، أشعر بالبرودة.

أين أبي؟! لماذا هو؟! ليتني كنت أنا! قتلته أ نعم قتلتُ أبي، ألطم وجهي وأعقر بطني ألف مرة أتجرع الموت وهو يلفظني، كُلّي تبلد من الحزن، هواء الغرفة يخنقني.

تدخل "أم يحيى" تقبلني وتَرَبّت على كتفي، الليالي حالكة السواد، رفعت الأنامل قراطيسها، وتعلثم الصمت ولم تغف عيوني، يجول بخيالي كم حلمتُ ببيتٍ يجمعني معه، أُكَوّن أسرة، وأعيش عمري الضائع، حلمتُ

بشاطىء حبٍ يجمعنا فيه أرفرف في فضاء روحه، كنتُ أتمنى أن يسرقني كي يمطر قلبي بهجةً وسرورًا.

ويجمع بيننا الحب، يكون عائلتي التي حرمتني منها الحياة طوعًا، كنتُ أحْلُم ببرّ أمان معه، لم أسع للرزيلة أبدًا.

أنا السبب في كل ذلك؛ عقلي المريض سَوّل لي الخطيئة في ذلك الليل الحالك، أخرج إلى الشارع أسيرمستقيمة أتمنى لو جاءت سيارة لتقذفني في غياهب اللاعودة؛ أتذكر وجه زوجة والدي وجهها المبتسم وقت أن ذبحني الشيطان اللعين.

يزداد جزعي تردد "أم يحي" كفاكي يا بنيتي، ما الذي أوصلكِ لهذا المجهول، أين كانت زوجة والدك؟! لعن الله من حطّمك وكسر قلبك بنيتي.

أقول لـ"أم يحيى" لا أريد البقاء في هذا البيت الخرب، لم يتبقَ لِي شيئًا فيه؛ رحل آخر خيط يربطني بهذا المكان أريد أن أتركه بلا عودة.

ترد عليَّ أم يحيى: استرخي الآن واصبري، أردد لم أتخيل يومًا أن يكون ذلك الذي رسمت بروحي حول روحه هو سبب تعاستي، لم يخطر ببالي أبدًا !هل هذا الشبح أنا؟! ركلتني الحياة بأم قدميها فشطرتني ولم تكتفي. قلبي مهترئ مهما ترقع لا فائدة في عودته، لا أعرف ما تخفي لي الأيام، وما هو مستقبلي.

"أم يحيي" تقول: ما رأيك نذهب إلى بلد عربي آخر؟!

تهلل وجهي، وشعرتُ أن الشوك يتناثر بعيدًا عني، كنتُ أشعر بحاجة مُلّحة للتحدث مع صديقاتي، مررتُ بفترةٍ مُرة ولم أتواصل مع أحد منهن، تذكرتُ عناقهن في الصور، وددتُ لوعانقتني إحداهن، حتى لو كان عناقًا زائفًا، فأنا في حاجة إليه، تلاشى كل شيء من حولي، إنها تصرفاتي وسلوكياتي وأنا المسئولة عنها، اليوم أطلب اللجوء إلى روحي ثانيةً بهيئة إنسان مكسور جناحيه، فاقدة البصر ولكن البصيرة مازالت تؤمن بأن الله معي.

"أم يحيى" قالت لي: لها قريبٌ في لبنان، سنرحل لهناك، كان عليَّ أن أجمع أوراقي وجميع متعلقاتي، ذهبتُ إلى بيت أبي، لأسمع صوت تلك الملعونة ومعها ذلك الشيطان، لأجدهما في وضعٍ مخلٍ، بصقتُ فيهما وصرختُ بأعلى صوتي:

اخرج... اخرج بره... لتقول لي:

أنتِ اللي تخرجِ بره... هذا بيتي...

أردد: هذا بيت أبي... وبيتي...

تقول: أبوك مضى على بيعه لي قبل موته بدقائق، شُلّ تفكيري، كيف ذلك؟!

فتضحك وعشيقها، أكتشف أنهما اتفقا على قتلي وقتل أبي في آنٍ واحد، شرب السُّم فمات. لم تكتفِ بقتلي قتلته وأخذت ماله.

أكل الحزن جسدي، والدموع حفرت طريقها في وجنتي، الحزن يقضمني قضمًا.

مضت الأيام والذكريات تشوي عقلي والهم يحتل جدراني، إلى أن قررت "أم يحيى" أن نرحل، في الصباح الباكر استيقظتُ "وأم يحيي".

أعتلينا قاربًا للهجرة غير الشرعية، نظرًا لضيق ذات اليد، وفي الطريق وبعد العديد من الصعوبات والتحديات وصلنا إلى لبنان، وكانت "أم يحيى" لديها معارف وأقارب ساعدونا لإيجاد غرفة للمعيشة، أم يحيي كانت بمثابة الغصن الأخضر الذي تحيطه اليابسة، تلك المرأة التي تحمل بين ثنايا روحها چينات الأمل والتفاؤل، لا تعرف معنى للمستحيل، الحزن يزفني إليه كل ليلة فقطعت بحبها حبله، وأعلنتُ الغد الجديد، وكأني نبتة تعلن للنسيم وجودها.

اليوم أُنهِي الإقامة الجبرية لحزني أخرج من الغرفة لأستنشق الهواء النقي، أسير حافية القدمين على شاطيء الأمل لأعلن ميلادي من جديد.

أزحتُ أحزاني خلف اليابسة وأعلنت حياة كريمة، آن لي أن أصنع حياتي فوق هضاب الأمل، تتردد أمامي صورة أبي ولحظة وقوعه مغشيًا عليه، دفنتهُ، وحملتُ أنا رائحة دمه بين يداي مدى الحياة.

هي مَن أخرجتني من وطني وانتهكت عرضي، يجول بخاطري صديق والدي "عبد العال" الرجل الذي أصيب بجلطة دماغية، وعلى إثْرِها

ذهب إلى المستشفى، لم يكن عنده أقارب وكان لديه ابنة وحيدة أتى بها بابا إلى بيتنا وسهر والدي على حالته حتى وافته المنية، بعدها بأيام تزوج والدي ابنته، حفظ كرامتها ورفع من شأنها، وهى مَن تقابل كل ذلك بأخلاقها الدنيئة، تقابله بالحقد والنكران، جندت الشيطان ليقتلني وخانته، انتزع إبليس منها فِطرة الإنسانية، صفاء نيتي أضاعني، تحول البشر إلى وحوش، تسربت من بين أيديهم الأخلاق، الألوان كلها باهتةً حولي.

سرى في شرايينها سوء خلقها فشوه إنسانيتها، ظلمت نفسها قبل أن تظلمني، إنها تشكلت كأبليس اللعين، لها يوم تدفع ثمن شرها.

"أم يحيى" تقول: القرية التي نحن بها يوجد فيها الكثير من الأقارب والأصدقاء سيساعدون للحصول على عمل مناسب.

بالفعل اليوم أتسلم عملي كممرضةٍ بإحدى المستشفيات أنا و"أم يحيى" لتتذكر أم يحيى ابنها الشهيد وتبكي وتقول: أي بني، لقد رأيتُ الغسق منذ ضعتَ مني في الأفق اليوم حُطام قلبٍ محترقٍ لا يبقى منه إلا الرمق سلبوا منك أحلام الطفولة ورائحة الدم تعلو ولم يبقَ إلا الوهن.

في المساء وأنا في المستشفى وإذا برجلٍ مغمى عليه، فأدخلوه قسم الطوارئ، لم يعرفوا جنسيته ولاعنوانه فاضطررنا إلى فتح محفظته لنعرف هويته وإذا به فلسطيني الأصل، تهلل وجه "أم يحيى" وسهرت على حالته معي، تقول: أنه يشبه "يحيي" طال انتظارها حتى استفاق وبدأ يتحدث

معنا هويشعر بالخوف الشديد الذي يلمع في عيني "أم يحيى" عليه يشعر بحنانها له ويغمره، فيود ألا يستيقظ من مكانه لينعم بهذا الفيض الذي ينعم به ويدثره من الحب والحنان، يأخذ عنوان "أم يحيى"، ليتواصل معها نعرف بعدها أنه رجل الأعمال وصاحب شركة المقاولات "حمزة العليلي".

تمر بنا الأيام لنسكن في الشقة التي يهديها حمزة إلى "أم يحيى" ويغدق علينا الهدايا، ويدعوني للعمل في شركته رغم علمه بأني لم أكمل دراستي. وأواجه العديد من العقبات لتعييني؛ فأنا لم أدخل البلاد بطريقة شرعية وليس معي جواز سفر، لأفاجأ به يزلل كل تلك العقبات ويستخرج لي أوراقًا رسمية توثق في وزارة الهجرة وكذلك مصلحة الضرائب لأحصل على راتب لم أحلم به في يوم من الأيام.

تمر الأيام.. لأثبت له كفاءتي في العمل الذي وُكّل إليّ، لم يشغلني شيئًا عن ذلك فأنا مَن أعلن استقالته لعالم الأنوثة، أحتفظ بصمتي رغم لباقتي وعنادي، رغم لطفي وصفائي، رغم تصنعي غير ذلك فقد سلمتُ أمري إلى الله وبه اكتفيتُ، كان حمزة يرمقني من بعيد وأنا أتجاهل رغم ضجيجي، في كل لحظاتي أكرر يا ألله.. أثق بك يا الله.

أتظاهر بأني على ما يرام، وداخلي يحترق، وذاكرتي ترتعد من كل شيء، ألاحظ حمزة وكأنه يعدّني لأكون سيدة مجتمع، يعطيني الكثير من الثقة بالنفس يسند إليّ الكثير من الأعمال، ويعلمني خبايا الأمور وأسرارها،

وإذا به يدعونا إلى رحلة خارج البلاد، توافق أم يحيى وأنا أعتذر ليلح عليَّ بقوة ولكنني أرفض لأسقط جالسةً منهارة، لا أشعر بمَن حولي.
يتصل بالاسعافات لأبقى عدة أيام داخل المستشفى، و"أم يحيي" "وحمزة" لا يفارقاني وإذا بحمزة يقول أنا عرفتُ كل شيء، ولا شيء تغير عندي، ربك يسامح فكيف لا أسامح، كنتِ ضحية مجتمع فاسد بلا أخلاق ومعرفتي بكِ أكدت لي سمو أخلاقك، فهل تقبلين بالزواج بي؟
يمر عامٌ على زواجي لأودع حنين الروح وملاذه "أم يحيى"، تمضي السنوات "وحمزة" يغرس القمح ويسقيه فينبت نبضًا في روحي ليثمر ويتضاعف مع نبضة طيبة باسقة اسمها "مها" تترعرع بين أبوين محبين، أنتفضت اليوم لأقول كلمة لحمزة لم أنطقها لكن أفعالي له رددتها دون لساني، الأيام لم تمهلني ودعته، لتعلن الأيام إعتصامي من جديد تركني و"مها"، أعود إلى بلدي وأنا شجرة لا ترمق الحياة إلا لأجل "مها " ها هى تستعد "وأحمد" لحفل زفافهما.
تمر الأسابيع لأعرف أن الشيطان قام بجريمةٍ مماثلةٍ فقُبض على إثرهاعليه، ليمثل أمام المحكمة الجنائية ويحكم عليه بالإعدام شنقًا، فيعترف أمام المحكمة بجريمته الأولى و أنه اشترك مع تلك الملعونة في ذبحني وقتل أبي والاستيلاء على أموالنا، ليتبول الزمان عليهما وينتقم الله منهما.

****

نوفا فيتا (حَيَاةٌ جَدِيدةٌ)

أمي وأبي يعشقان الإنجاب، في مطلع كل عامٍ يقدمان للعالم هدية من نوعٍ خاصٍ؛ طفل ذو عينين ملونتين، إما خضراوين أو عسليتين، رغم فقرهما وضيق ذات اليد إلا أنهما يحافظان على وفائهما بالعهد، كل عامٍ طفلٌ يقدم قربانًا لرحم الفقر المُدقع.

ورغم ما يحيطنا من مجارٍ طافحة، وحمار يرقد وسط الدار، ونوافذ متهالكة يدخل منها دخانٌ متصاعدٌ من المصانع، ورغم كَدّ أبي ليلًا ونهارًا إلا أننا دائمًا ما كنا نضحك ونمرح من شروق الشمس حتى غروبها، كنتُ في صغري كثيرة الحركة أعشق المرح، خفيفة الروح سريعة البديهة، أفتعل الضجيج بيني وبين إخوتي ولكن أبي كان يسامحني ويحتضنني، كان يُجلسنا حوله ويحكي لنا قصص الأنبياء والصحابة والتابعين.

كنتُ أجذب مَن حولي للحديث معي فأنا ذات العينين الخضراوين، ظنت صديقاتي أنني لا أعرف للألم سبيلًا ولا للفقر طريقًا، كنتُ أمارس دوري بمنتهى البراعة، كنتُ أستاذة في ذلك رغم مرارة العيش.

ها هي الأيام تمضي على ناصيتي، ألملم بقاياها الضائعة، أصحو وأنام أنسج رُفاتي، ورُفات أحلامي المزعومة، الخيْبة تحاصرني؛ كنتُ أفكر كيف أحصل على الأشياء التي لا امتلكها؛ كيف أستقطبها إليّ لكن دون جدوى.

أمي تحجم حريتي، تضعني في إطار مغلق من التعاملات لا أهل ولا جيران؛ ممنوع التحدث مع أبناء عمي أو خالتي تقول أن الاختلاط حرام. نشأتُ في بيئة تحرم كل شيء كأن فيَّ عورة؛ صوتي جسمي، تحركاتي، كل شيء. أبي حكم عليّ بارتداء الحجاب منذ نعومة أظافري دون أن أعرف معناه أو قيمته، كبرتُ وعرفتُ أنه ليس مجرد غطاء هو سلوك وتعامل.

أبي يردد مرارًا :

أنت جوهرة ولا يجوز خروجك، عندما تجتازين المرحلة الثانوية تبقين في البيت إلى أن يأتي ابن الحلال ويأخذك إلى بيته.

داخلي يلفظ كلامه لكني التزمت الصمت أدبًا، كان عليَّ دور كبير لأتخلى عن كل هذا الركام الجاثم حول عنقي، كثيرًا ما كنتُ أشعر أن هناك مكانًا خلف هذا الضباب ينتظرني يفتح ذراعيه ويحتضنني، لطالما دعوتُ الله أن يهديني بعضًا من الأمان، بعضًا من الحرية والاستقلال بعضًا من البرد الشهي؛ كي أسيطرعلى هذا الإحباط الذي يتلقفني ويفتك بآمالي. تمنيت وضعًا مختلفًا عمّا أعيشه وأسرتي، تخيلت فارس

أحلامي الذي يخطفني كسندريلا ويذهب بى بعيدًا يحملني معه على بساط الريح لنطوف حول العالم معًا، " آسر "ينتظرني على باب المدرسة عند انتهاء اليوم الدراسي، رسمتُ نجم ليلي معه كثيرًا ولكن الواقع كان مريرًا.

اليوم تزغرد أمي وتقول: حفصة جالك عريس، جارتنا أحضرته لك، اسمه "علي" أَسْوّد وجهي وأخذتُ أتمتم بكلمات غير مفهومة، هل أصارح أمي بما يجول بخاطري؟، هل أخبرها بحبي "لآسر"؟ لقد وعدني بالخِطْبَة بعد الانتهاء من دراسته الجامعية، سيكون مدرسًا له شأن في المستقبل القريب، "آسر" ذو خلق، في ملامحه الذكاء والطموح اللامتناهي.

قررتُ بالفعل وذهبتُ إلى أمي وبدأتُ الحديث معها، فما كان منها إلا أنها صرخت بأعلى صوتها ولطمتني، ثم نادت على والدي ليصرخ في وجهي ويلطمني ويردد: ما عندي بنات تحب، يا قليلة الأدب، لاترددي هذا الكلام.

بعدها سُجنت في بيتنا ولم أخرج منه تصوفت مع أبي وحُرمت من الطعام والشراب لعدة أيام وشلالات من الدموع لا تفارقني، أعرف أني سأكون ضحية لهذا الجهل وهذه العادات والتقاليد العقيمة، حتى تقرحت دماملت قلبي، والدي يريد أن يتخلص من نفقتي ومن مصروفاتي، الحِمْل ثقيل عليه، وأنا أزداد سعيرًا، رفض إلحاقي بالجامعة

رغم تفوقي وحصولي على مجموعٍ يؤهلني لكليات القمة بحجة أنه حرام. ماذا أفعل؟! هل أهرب من البيت! إلى أين أذهب ومِن أين أنفق؟! لا أعرف؟

يظن "آسر" أني نقضتُ عهده، أنا مَن جمعتُ ذرات حبه ووصمته في قلبي، السماء تنطبق فوق رأسي، الكل يقذفني للموت قذفًا، فشلتُ في الاحتفاظ "بآسر" هل يستطيع هو أن يفعل شيئًا؟! لا أعرف.

الظاهر أني لا أتقن سوى الحب من مسافاتٍ بعيدة، هل فتاة في مثل سني تتحمل مسئوليات الزواج وأعباء عائلة بأكملها!

عمي يقول أن البنات في هذا السن قابلات للتشكيل كالصلصال تمامًا، وينصعن لكلام أزواجهن؛ يقول بأن الرجال يفضلون هذا السن، هو لا يعرف أنه يشكل مانعًا من الحجارة وليس الصلصال، تبعثرتُ وكأن الأوزار تبطئ أيامي، ألقت بجيوشها لتدق أجراس اعتقالي؛ عمي ووالدي يرتبان معًا ليوم الخِطْبَة، ثَمّة خريف قادم.

جاء العريس وجلس في المنتصف، وجلس والدي يسأله عن دينه، عن مرتبه، عن أقاربه، والبلد التي يقطن فيها، وكان أهم سؤال له هل يوجد في عائلتكم أحد عاقر، لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سأله عنها حتى تصبب عرقًا وشعرأنه يُحاسب من الملكين لجنة أو نار. فأجهضوا رحم قلبي باكرًا، أرتعش، لا يطرق النور بابي، ظلام صامت في أرجائي.

استلقيت بين راحتيه أعانقه بقوة أثرثر كثيرًا وكثيرًا، أتأمل عينيه يناديني أميرتي تحمر وجنتيَّ خجلًا، أرتدي ثوب زفافي، على مقربة من قلبه تعزف مشاعرنا وتنطق بروعة الأشواق، يغمرني بحنانه، أرتدي معه صفحة القمر، وإذا بأختي تهزني بعزمها وقوتها حفصة، حفصة، أنت مريضة استيقظي، ماذا بك العرق يبلل ملابسك، دموعك تملأ الوسادة.

"خديجة" تنادي أمي، تحاول أمي أن تهدئ من حالتي السيئة، أتمتم مع نفسي؛ انسحب "آسر" دون كلام.

انسحب وتركني وحدي، لا أحد أشكو إليه، شاع عطره بقلبي، والآن يتمزق دون صوت، لا أستطيع جمع مشاعري ووقف شلالات دموعي، غرقتُ في بحر من الهموم.

الرابعة عصرًا، أجلس على مقربة من شرفتي، أثرثر بما في خاطري، أعانق قلبي بقوة وكأنه طفل رضيع أخاف أن يسقط مغشيًا عليه من بين أضلعي، لمحت "آسر"، حاولت أن ألملم بقايا مشاعري فتجمدت حروفي، ثَمّة سيف يغتالني، يشق صدري دون دماء يعلن وهني وغروب تفاؤلي.

"آسر" يقول لي: كنتُ أتخيل أن تعطيني فرصة حتى أنهي دراستي وأصارح أهلي ولكني ساذج يا حفصة، لماذا أعلنتِ التخلي عني، لماذا غرستِ شوكة الفراق بيننا؟ أنتِ تعرفين أني أحبك، وفاة أبي وظروفي أنتِ تعلمينها جيدًا، أمي تصرف علينا عمومًا أتمنى لك السعادة.

غازل "آسر" الموت ليرمقني، أعلن انتحار روحي المتعلقة به، حتى اختنقتُ عشقًا، دخلت أمي وكأن شيئًا لم يكن لتشق صدري من جديد وتقول لي: تجهزي عريسك سيزورنا اليوم لتحديد موعد الزفاف.

الصمت القاتل يأتي بجذوة من نار تسيطرعليَّ ليلقي بي في غَيَاهِب التّيه لا حول لى ولا قوة لأُقذف في قفص الكفن قهرًا، تمر الأيام لأجد نفسي بين طريقين؛ طريق الانهيار، وغصة الاستمرار في تلك المسرحية الهزلية، شرفات قلبٍ متشققٌ متجمد وحزن ليس له غروب وزوج يتمنى أن يسعدني بكافة الوسائل.

ضجيج أحزاني يقتلني، يلقي بى في عالم غير عالمي مجرد أشلاء، جثة هامدة مشوهة القلب، لا حياة فيها وكأني تلك العجوز التي أصابها غشاوة الرؤية المفاجئة لا صوت يعلو على ضجيج أحزانها، فقدت خلاله سمعها والتصقت شفاتاها لتخرج من عالم الواقع إلى غَيَاهِب الذكريات التي غيّم عليها الظلام واحتضنها الانطفاء والوهن. اكتفيتُ بما انطوتْ عليه ذاكراتي مع "آسر".

الصباح مشرق، والسماء صافية متحررة من نبض غيومها، أجلس على سريري مستلقية وبجانبي "علي"، يبتسم في وجهي يتحسسني بهدوء ويمرُ مرًا خفيفًا على وجهي ويقول لي: كيف حالك اليوم أميرتي؟! أود لو كنتُ طفلًا صغيرًا تحتضنيه بين ذراعيكِ أوعطرًا يتجول حولك كالعصفور من خمر العشق مقتولًا.

فأنت كبياض الثلج وأنا بكِ مفتون ذات العينين الخضراوين أميرتي.
أحمر وجهي، وارتجف قلبي، "علي" يحمل في سريرته حب لي، يُقَبّل الجفن والخد وكُلّي يرتبك، أغرق في عرقي. يجلس بجواري على السرير ويقول: أتعرفين أنكِ علقتِ بقلبي منذ أول مرة رأيتك فيها؛ ارتبكت مشاعري وتسلق الخجل لساني، اليوم أقتل جمود نبضي، رعشاتي تعصف بضلوعي ليزداد اشتياقي إليكِ، حياتي بدونك باهتة أميرتي، أناشد روحك أن تسمحي لى بالولوج، قلبي سقيم، يود لو يذوب في الحنين، يعانق سنابل روحك كطفل يتوسل إليكِ فهل تقبلين، أم أكابد الانتظار وأنتِ معي حفصتي لما لا تهتمين، ثم يطبع قُبلة رقيقة أخرى على وجهي، ويتركني ليأخذ متعلقاته ويذهب إلى عمله بالشركة.
ما زلتُ مستلقية، اعتدلتُ وأخذتُ أفكر في كلامه ونبض مشاعره الجياش لي، لم يمر من الوقت إلا القليل لأسمع طرق الباب، ارتديت ملابسي وفتحت الباب لأجد أهلي كلهم حولي، تسألني أمي عن حالي وحال "علي"، أخوتي أخذوا يتجولون في الشقة والكل يقدم التهاني والتبريكات لي الكل يبتسم في وجهي، أتحسس السعادة بينهم، ثمّة طمأنينة لا تزورني، ولا تطبع قُبلة دافئة على مشاعري، اليوم أنام هادئة، لا أسمع نبرة الضجيج التي تقسم ظهري وتشطرني نصفين، بدأت استعيد حياتي وكأني طأطأت راكعة.

ترقرقت دموعي للحظة، تمنيت لو إنني أشعر ببزوغ فجر جديد، أود لو أغلقتُ أرشيف ذكرياتي وألقيتُ به في غَيَاهِب بئرٍعميق.

هنا يوجد عصفور يود لو يطير عَبْر أجنحة السعادة ليرمق نورًا قادمًا من بعيد يحمل بين طياته رذاذ مطر، لربما يعلن بزوغ فجره ويسقط الخريف ومعه الغروب، أسمع صوته فيسكنني الهدوء، يرتل كلامًا ويقبلني ويقول: يا هالة النور أقبلي، كنتُ قَبْلك متحجرًا، اليوم في معبدك ناسكًا، دائمًا ما يدعو الله لي ويقول: اللهم اجعل السعادة صباحك ومساءك أميرتي.

توجس يتسلل بدلاً من السعادة إلى دربي، تمنيت لوتجلت العتمة، مرت الشهور تلوّ الشهور وهو في غمرة من الهناء ليطلب مني "علي" الذهاب إلى طبيب النساء ليعرف لماذا تأخر الحمل.

بعد العصر وفي ليلة معتمة ذهبنا إلى طبيب النساء لتكرر الزيارة عدة مرات، اليوم نعرض عليه التقارير والفحوصات الطبية، وقفت ضامة البرد إلى صدري!! أخذت شهقة عميقة وفيها تجمعت الأحداث في صغري؛ كنا نتناول الخبز المحمص، والجبن القديم، وبعضًا من الفواكه الرخيصة، ورغم فقرنا كنا نضحك ونختلق الدعابة والنكات، كنا نمتلك الكثير من الحنان والمشاعر الصادقة، كان والدي يكد ويتعب ورغم تعبه يمرح ويضحك ونحن نلعب، أخي ترك دراسته وذهب ليساعد

والدي في سد الأفواه الجائعة ورغم ذلك كنا نرتشف السعادة والهناء داخل بيتنا دائمًا ما كان أبي يردد:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (١٥٥).

في الضوء الخافت جلس الطبيب يتحاورمع علي وأنا خلف الساتر القماشي، نتداعى عليَّ أفكاري من كل حَدْب وصَوْب لتقذفني وترجمني بالحجارة وكأنها حُمم بركانية، بدأ الإرهاق الشديد يظهرعلى صفحة وجهي الخوف يتحسسني حتى أصبحت كعمياء بكماء صماء أبتلعتُ ريقي، وارتشفت أوجاعي وخرجت، الطبيب المعالج يخرج مع "علي" ليخبره بشيء.

أعود معه إلى البيت وفي الطريق نتوقف السيارات بسبب حادث مُروع تقف على إثْره كل السيارات، يخرج "علي" من سيارته ليراقب ما يحدث ليجد رجلًا منتحراً في الطريق، الكل يسأل عائلته ما السبب الذي دعاه لذلك الفعل، ليقال أنه كان مريضًا بالإكتئاب منذ وفاة ابنه البالغ العاشرة من عمره وأجمع الأطباء على عدم شفائه، كان المنتحردائمًا ما يردد كم من الوقت وسأموت يوم أسبوع ربما عام، وكأنه يتوعد نفسه بأنه سيلتقيه في مكان ما في يوم ما، عزف لحن الأنين منذ أن توفى ابنه لتصدر آلات الموت صفيرها، تغتال السيارات جسده الطاهر فيتجرع جرعة الموت مرة واحدة.

أري وجه "علي" المسود وكأنه شُوّه من كثرة العثرات، انطفأت شمعة حُلْمه الصغير في إنجاب طفل يحمل اسمه ويقول له بابا، الظلام يكسو صمته ويكشف تفاصيل وجومه، كلام الطبيب سبّب كل هذا التجهم، وصلتني الرسالة؛ أنا لا أنجب.

سألته بخجل ووجهي مرتعش باهت؛ هل أنا مريضة أم عاقر؟! تجهم ولم يرد، أردفُ ثانيةً وأقول والنحيب يسيطرعليّ يحرقني، أنا عاقر، أنا عاقر، والعين تنزف نارًا.

أضم يداي نحو صدري وكأني أضم طفلي إلى صدري، تخيلت أننا نتبادل الابتسامات، عيناه تضحكان فأضحك نظرتُ إلى يداي لأجدهما خاويتين فأبكي وأبكي والدمعة تحرقني، إنني أحتضن السرااب السراب، أصرخ بقوة أنا لا أملك سوى يداي الفارغتين، أنا عاقر ... أنا عاقر .. كم من الوقت وأموت أنا أيضًا.

اليأس يحاصرني، تمر الشهور الدامية تلك التي تسحق عظامي كل ليلة دون حروف ليأتي الغروب ثانيةً، رائحة الحسرة تعم المكان، تغرس الخيْبة في قلبي وقلبه، ضاقت بنا الأرض بما رَحُبَت، عرضتُ على "علي" أن يتزوج ولكنه رفض، أراني أترنح كسعفة في مهب الريح، في كم مهمل، تُشتعل فيها النيران.

"علي" ينظر اليّ ببرود قطعت صمته وقلت: الأسبوع القادم حفل زفاف أختي خديجة.

ابتسم ابتسامة باهته ثم تنحنح وقال ألف مبارك، كان هدوؤه يقتلني يمزق أوصالي، اقتربتُ منه بخطوات يملؤها الهلع، إن شاء الله سأذهب إليهم وأبقى حتى ليلة الزفاف، أخذ نفسًا عميقًا وقال لي:

لو في أي مساعدة ممكن أقدمها لخديجة؟ هل ينقصها شيء ممكن أن أحضره لها، شكرته، أغمضت عيناي وتوجهت لغرفتي لتجهيزحقيبتي، كتفت يداي حول صدري وأخذت أجول بخيالاتي لأتذكر أيام عُرسي أكاد يغمى عليّ.

حملت جسدي المنهك وأعصابي المتهتكة وذهبت إلى بيتنا، لأتذكر الضحك والمرح، النكات والضحك، أجول بخيالاتي لأستيقظ على حائط كاد أن يشق رأسي نصفين فضحكتُ وضحك الجميع معي.

تمر الأيام وقد تم تجهيز بيت خديجة، زوجها شاب خلوق، يحبها وتحبه، اليوم هو يوم العُرس انتظرت "علي" ولكنه لم يأتِ يمر الوقت أتصل به ثانيةً لم يرد.

نبضات قلبي تصارعني، تخيلت أنه أمامي تمنيت لو كان معي وألقي بروحي بين زراعيه لأنعم بأنفاسه الدافئة، ليس ليّ معطف يدثرني، أحاول جاهدةً السيطرة على أعصابي وعلى قلقي، تراجعتُ خلف الضيوف وجلستُ وحدي لألمح من بعيد من دار بخوالجي "آسر"، أخذتُ نفسًا عميقًا ورجعتُ ثانيةً إلى حفل الزفاف، وحالي يردد "استغفر الله".

حاولت الاتصال ب "علي" مرات ومرات ولكن دون جدوى، أشعر بشيء مخيف يطاردني، يثيرأعصابي وغضبي.

طلبتُ من أخي الأكبر بتنهيدة حارقة أن يرجعني إلى بيتي، كنتُ أشعر أن الرعد يعصفني، وعلى باب شقتي وفي ليلة باكية، سمعتُ صوت طفل رضيع يبكي داخل شقتي، وقتها شُلّ عقلي، أخذتُ أتعجب من مصدر الصوت وأبحث عنه حتى وجدته مستلقيًا على سريري وفي غرفتي، تخيلت لوَهْلَة لو أنه من دمي تخيلت الحنان الذي بين ضلوعي يسري تخيلت تعلقه في عنقي وبكائه على صدري تخيلت تمزقي لأني لا أعرف لماذا يبكي، هل به مرض وأنا لا أدري بكيت لبكاءه وعنفت نفسي، ثم استرجعت نبضي وبؤسي وسألت عنه، دخل "علي" الغرفة قال سريعًا قبل سؤالي له: تبنيته من دار الرعاية الاجتماعية.

ابتسمتُ والخوف يكبلني، رأيتُ المستحيل يقضمني، يجمع بقايا روحي ويعنفني، أهسهس ربما أتناسى معه هواجس وحدتي، في لحظة اغتربت روحي عني، تركت الزمان والمكان وجنحت عبر صفحة طفولتي وحنان أمي فنفيت دموعي وابتسمت ثم تلمست الرضيع لأجد أسورة في يده باسمي، تراقص الغضب في عيني وبعدها تركت الغرفة وذهبت، لم يعلق "علي" أنفاسي تتلاحق وتعانق غضبي.

عندها سمعتُ بكاءه يزداد لم أتحمل وذهبتُ لأحمله بين صدري وإذا به ينبش الحنين في وجدي كأنه جاثم بين ضلعي يحتويني حبًا.

تتعاقب الشهور تلو الشهور، يكبر الصغير ينام في غرفته وحده يصير له أصدقاء "عمار" يكبر وديبب السعادة يزداد داخل قلبي وبين زوايا بيتي، وكأنه أضاء عتمتي وصنع لحياتي معنى وقيمة، بات دمًا يجري بين شرايييني.

في الشركة التي يعمل بها "علي" يدعونه للتدريب خارج البلاد لفترة، اليوم أجهز "لعلي" حقائب السفر، "عمار" يقول له بابا حبيبي خذني معك في الحقيبة أضحك ويبتسم "علي" يقول له: بل سأحضر لك الكاميرا التي تريدها لتصور كل ما تريده.

انقضت الأيام وأنا أعتني "بعمار" وبدراسته ومعي جارتي "نهى" تساعدني في تعليمه، تحبه مثلي وتخاف عليه معي، يلعب مع ابنها "سامح" الذي يكبره بعام.

أصبح "عمارًا" هو شغلي الشاغل ليل نهار، نفسي الذي أتنفس به، أنظر اليه أجد عيونه تحمل بعضًا من الأمل والرجاء وسط ركام، هو الشمعة التي أضاءت ظلمتي، عقلي يرفضه وكُلّي يناديه ويعانقه، لم أتحدث بذلك الأمر أبدًا لأخبر به أحد. أسأل عمارًا لماذا كل هذا التعلق بالجوال حبيبي ليل نهار؟!! يلعب هو وسامح ويقومان بإنزال الألعاب الإلكترونية وخاصة بابجي وتشاركهما جارتي "نهى" فهى متيمة بوسائل التواصل الاجتماعي أكثر من اللازم، ربما لأن زوجها مسافر منذ وقت طويل.

أمواج الحزن تجتاحني ليلًا والأنين يحتويني يمد أشواكه، يجر أذيال خيبتي معه يغرسها في قلبي، أتلمس يدي "عمار" وهو نائم وأقول له مَن أنت؟! ومِن أين أتيت؟! الفضول يمزق أواصر جسدي.

يستيقظ "عمار" ليملأ أرجائي سعادة ومرحًا يتناول وجبة الإفطار ثم يذهب مع سامح إلى المدرسة، وبعد أن أتيا من المدرسة ذهب سامح ليُحضر شيئًا أوصته به أمه فأعطى المفتاح لعمار؛ حتى يدخل يرى رسمته وإذا "بعمار" يصرخ ويصرخ ويخرج من بيت سامح والدموع أنهار لا حصرة لها ليرتمي في صدري، احتويته وأرَبّت على قلبه أسأله ماذا بك وقلبي ينزف معه، بعدها يطرق سامح الباب ويسأله لماذا لم تدخل عندي كنت أود أن ترى رسمتي ليعنفه ويطرده من البيت ويغلق الباب بعنفوان لم أره من قبل، الوقت يمضي وحالة عمار تسوء، اتصلت بالطبيب، أتي وقام بدوره وطلب مني أن يذهب فورًا إلى المستشفى.

سألته عن حالته؛ قال صدمة عصبية شديدة، المطلوب ألا يسأله أحد عن أي شيء، الأيام تمر و"عمار" أكثر اضطرابًا، أسأله: يا قلبي ماذا بك يا عمري؟!

أقف على باب غرفته بالمستشفى وكُلي يضرم النار في جسدي، "علي" يتصل بالهاتف النقال ويقول وصلت إلى المطار سأضع حقائبي في البيت وأصل إليكم سريعًا. وصل "علي" ودخل ليطمئن على "عمار" وإذا "بعمار" يصرخ ويشير إلى باب غرفته وكأنه لايريد رؤية والده، ليخرج

"علي" وكأن جسده يحترق ورائحة الشواء تحاصره لتقبع أمامه وخلفه، أعشاش الهم تدغدغه، والحزن يأكل أوصاله.

"عمار" لا يتكلم ولا يتحرك، الصمت يزعزعه وعيونه تصرخ وتنهار كنهر من سقر، لسان حالي يردد؛ حملت أحلامك العذراء "عمار" وكُتبت في ورقة التاريخ بأنك ابني، بتَّ دمًا يجري في عروقي، شعاعي الذي يرتل سعادتي، اليوم تلبدت سمائي ونُزعت من عيني البصيرة مرة أخرى. أنا دون يد صغيرة تلوح لقلبي، آه عماري...آه.

ماذا فعلت بك "نهى" هي جارتي وأنا راعيت حقها، هي تعرف أنك حُلمي السقيم وعيني المجروحة وأنك نتاج عجزي، أنا صحراء جرداء، بل جثة تعلن نزف حاضرها.

أَبَتْ السعادة أن تبلل شفتاها بك يا نور صبحي، تناسيت مَن أنت برغم اشتعال الحريق في مخيلي، استغفرالله العظيم، اللهم ارشدني إلى الصواب يا رب.

مَن كتب على إسورتك اسمي "علي" استخرج شهادة ميلادك أنك ابني؟! لا أعرف كيف أقيد عذباتي، انني أحارب عقلي، أحقق في خيالاتي وكأنني المفتش كونان كل ليلة، الألم بيساري يذبحني.

تطرق "نهى" باب الغرفة وتدخل وكأني رأيت عفريتًا اشتدت عرقي، وتجمع الدم في وجهي أهزها، أزجرها، أعنفها تكلمي وإلا قتلتك ماذا فعلتِ؟!، ماذا قلتِ له، ابني يضيع من بين يداي أنتِ ضيعتِ ابني؟!

وإذا بها تصرخ لا هو ابني أنا، نعم ابني أنا، لأسقط جالسةً وكأني فقدت النطق وأصابني الهرم شُلّت كل حواسي، حتى دموعي أبت أن تنزلق مني تحجرت في مكانها، العالم لا يتعاطف معي يضرم طعناته ليقتلني ألف مرة.

أنامل عقلي تاهت في بئر ليس له قرار، يقف "علي" وقد شُل لسانه وعيناه تحترق ولكن دون جدوى، يا للفاجعة! ... ماذا أسمع وماذا أرى؟ ... أنت...؟

ماذا أتى بكما؟ ... تكلما...؟!

لم يجرؤ "علي" على الذهاب معها...

أريد أن أموت.

أصبحتُ بين نارين هل أتركه وأذهب؟!، أم أتركه لهما ضحية؟! استبد اليأس بي، هل أتخلى عن نور قلبي وأنفاسي؟! كان قراره هو بأن طردهما من الغرفة، ولكن من يضمد جراحي أنا؟! هو ندبة تغرس أشواكها في ضلوعي، ما إن خرجا من الغرفة حتى نهرها "علي" وهي تكاد تحتضرانكشف أمر تلك الشيطانة الخائنة الهائمة في غِيّها في غياب زوجها، اليوم حان مصيرها هى وعاشقها، سُيحطم بيتها كما حطمت بيتي ومزقت أواصر قلبي سيضع زوجها الحبل حول عنقها ولن ينسدل الستار على فحشها، لم ينفعها تعّريها وانعدام أخلاقها التي أنجبت عارها ولم تنته بل استمر شيطانها.

لمحها "عمار"وهي عارية أمام شاشة الأزرق هائمة في بَغْيها مع والده "علي" حتى أنها لم تشعر بدخوله إلا وهو يصرخ.

مكثتُ في المستشفى مع "عمار" عدة أسابيع حتى تحسن، فهو يحتاج إلى رحلة طويلة من العلاجات كي يشفى تمامًا، بعد عدة أسابيع طلبتُ الطلاق وأخذت مستحقاتي منه، وتركت المدينة كلها وارتحلت، نتوءات على شغاف قلبي نتساءل هل يعاقب "عمار" بذنب والديه وما اقترفاه من إثم؟! هل أحكم عليه بالإعدام مرتين؟! عليَّ أن أتذكر ابتساماتي وإشراقاتي معه، هو من أنقذني من مستنقع بؤسي.

مضت الشهور وقد ارتديتُ قبعة المستقبل، استدعيت حياتي وعدتُ لأكمل مسيرتي الدراسية ولكن الجامعة في مدينتي رفضتني، انتقلت و"عمار" إلى مدينة أخرى، لكن التكلفة كانت مهولة والدراسة تحتاج إلى الكثير من المال "عمار" في مدرسة خاصة وعلاجه يحتاج إلى الكثير من الوقت والمال ولابد أن يستمر، لذلك لجأت إلى العمل فأعطيت دروسًا خصوصية داخل البيوت لتدر ليّ دخلًا، آن الأوان لأن أصحح ما تقبلته بالأمس من انتحار روحي ومستقبلي، قُتلتُ مرارًا وتكرارًا، أعيش على هذه الأرض مرة واحدة فاللهم اجبر قلبي جبرًا يليق بعظمتك وقدرتك، أنت وليّ ذلك والقادر عليه يا أله، يا صانع المعجزات والمستحيلات يا الله، اللهم إني ثقلتُ بالأدب في عروقي ففاح عطر شرودوي،

وحطمت الدنيا أواصل حدودى فهل تتغلغل السعادة يومًا في عروقي، وتجلب ريحها نسائم فرحي وعبق حقولي؟!!

الآن أضرب بالعادات والتقاليد والقوانين التي ترعرعتُ عليها عرض الحائط، أذهب إلى جامعتي، و"عمار" يذاكر ويجتهد وأنا معه أشق الصخر، ليأتي يوم تخرجي، لكن الزمن لم يمهلني بعد؛ أصيبت إحدي عينيَّ بالعمى، كنت أذاكرلأمهد لكوني جراحة، تلقيت العديد من الدروس في تشخيص أمراض النساء والتوليد، تمر السنوات ليصبح عمارًا طبيبًا في نفس التخصص، نسافر معًا عدة دول نستقرافي المملكة المتحدة، يقول الإمام الشافعي عن فوائد السفر"سافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِد:

تَفَرُّجُ هَمٍّ- وَاِكتِسابُ مَعيشَةٍ - وَعِلمٌ - وَآدابٌ - وَصُحبَةُ ماجِدِ...أعطي عمار دروسًا في الجامعة، وبدأ حياته العاطفية مع حبيبته "سيليا"؛ ضاقت الدنيا بنا، وكان الثقب الأوسع لحياتنا هو العلم لنخرج من هذا الضيق إلى الأفق الواسع تناسينا ظروفنا وقطفنا من الدنيا بقبضتنا سعادة تنفسنا بها، كلما رآني حزينة كان يعرض عليّ فكرة الزواج كنتُ أضحك، وأعي أنه يرغب في مساعدتي وخروجي من علقم حياتي الذي استساغه عقلي وقلبي حتى تلذذت به أيامي، أبحرت إلى شواطئ لا أرغب فيها، شواطئ ساقها القدر وحده إليَّ، البعض غاب وبعُد لكنه قابع في أدق خلايا الروح.

ارتشف "عمار" معي أحزاني، يرى صورة أبيه وأمه كل ليلة في كوابيسه مهما بعد لا تغرب آلامه أبدًا، أقيم الليل متهجدة لله أسامر آلامي مع وجه القمر الحزين، حتى زحف المرض إلى قرنيتي عيني، ومعهما تهادت حياتي، حياتي ظلمات يضيئها "عمار" بقربه وحبه لي، قررنا العودة إلى بلادنا لعلنا نجد أحد المتبرعين، تمر الأيام مظلمة يعتليها البرد القارس يذبذبها الصمت، كل ليلة أعتلي لوحة حياتي التي أتقنت رسمها في بؤبؤ قلبي، حمدت الله رغم السواد المجلجل بالألم ولكن عمار لم يغمض له جفن حتى توصل لمتبرع ليتبرع لي، تساءلت في عجب من أمره؛ من تبرع لي بإحدى حبيبته وهو على قيد الحياة؟! كيف؟! ولماذا؟!

اليوم تداعب أشعة الشمس عيني من جديد، لا يعلم أحد أن عينيي في حداد منذ زمن بعيد!!، ما عاد لي اليوم شيئًا أشتهيه سوى "عمار"، ترقبت آسر على ضفاف نهري فهرب النهر عن ضفافه، وبعد ... عني.

عرجت لليلٌ هارب عنه نجومه، فعم الغيوم كوني ليلتحف بين الضلوع حزني، جلست أناجي ربي وأحمده، واسجد له شكرًا، سألت عمار من المتبرع كي أشكره وطلبتُ تحديد موعد لزيارته عند الطبيب، جاء اليوم المحدد وذهبتُ وعند دخولي إذا بيد تمسك بى لتعبر جبال تمزقي وضجيحي تبتلعها عن آخرها لأرسو على شاطئ من الأشواق العارمة لترتبك بوصلة الزمان ويُبتلع المكان، فيغمرنا شوقًا وحنينًا إنه "آسر"

؛مساعدة الطبيب المعالج تعرفني أن "آسر" مَن تبرع لي بإحدى قرنيتيه ليقصي جراحي وينير دربي من جديد فيرتمي كلي في كله.

****

الفهرس

الباب الخلفي ٧
المَوْتُ قَسْرًا ١٥
يَوْمُ الحِطْبَةِ ٢١
ريتا ٢٥
الهَاوِيس ٣٠
حَيَاة ٣٤
غُرْبَة ٣٧
رَحِمُ الخُلُودِ ٤٤
عِنَاقٌ سَاخِن ٥٢
نُوفا فيتا (حَيَاةٌ جَدِيدةٌ) ٦٦
الفهرس ٨٦